مع التمنيات الطيبة
فؤاد حجازي

عنقودة وتَّمُــرة

فؤاد حجازى

" رواية "

" الطبعة الثانية "

● نشرت هذه الرواية في حلقات أسبوعية في جريدة " الأهرام المســـائي " من ٧/٩-٢/١١/١٩٩٧ .

أدب الجماهير

كتاب أدبى يشرف عليه:

فؤاد حجازى

المراسلات:

عمارة الفردوس.
جوار مدرسة الشيخ حسنين. المنصورة

الرزمز البريدى : ٣٥١١١

تليفون:

٣٤٧١٦٨
٠٥٠

الغلاف : عمر جهان

الجزء الأول

[١]

اعتزمت عاتكة أن تلقى أم ورقة.

وهاهى قبل انقضاء فترة القيلولة. تسرع إلى لقائها. قبل أن تنشغل مع مريداتها، بعد صلاة العصر.

كانت عاتكة تأمل، أن يفرج الحديث مع أم ورقة، عما بنفسها من حزن. منذ أرسل عمر بن الخطاب، إليها، يلتمس آية من القرآن، كانت مع زوجها زيد بن الخطاب، ونفسها لم تهدأ، وقد تقلبت عليها الذكريات.

تذكرت زواجها، من عبد الله بن أبى بكر، وحبه لها، الذى جعله، ينشد فيها الشعر. رددت بيتا تعتز به:

أعاتك، قلبى كل يوم وليلة ** إليك بما تخفى النفوس معلق

ترحمت على عبد الله، الذى رغم حبه الشديد لها، لم يتقاعس عن الإشتراك فى الغزوات، كما كان يخشى أبوه، حتى أصابه سهم قاتل يوم معركة الطائف.

واستكثر بعض الناس عليها، أن تقول فى رثائه:

رزئت بخير الناس بعد نبيهم ** وبعد أبى بكر، وماكان مقصرا
فآليت لاتنفك عينى حزينة ** عليك ولاينفك جلدى أغبرا

وحين تقدم زيد بن الخطاب، لخطبتها، خشيت أن يعايرها الناس، ويقولون: هاهى عاتكة تعود إلى الفرح وهى التى قالت: آليت لاتنفك عينى حزينة.

قالت فى نفسها: قد تكون النظرات الحزينة قد غادرتنى، ولكن هل يدرك أحد أن الحزن، قد ترسب، فى أعماق نفسى. أدركت أم ورقة مابها، ونصحتها بقبول زيد زوجا، وألا تعيش عمرها، حزينة على من ذهب. وأخبرتها أن الناس سوف يقدرون، ويعذرون. وأردفت أم ورقة: وهل تلام امرأة لأنها أحبت، وعبرت عن صدق عاطفتها، حين فقدت من تحب..؟!

وهاهو زيد، يذهب هو الآخر. وتساءلت عاتكة: لماذا أرسل عمر بن الخطاب يسأل عن آية، كانت مع زيد. أتراه لم يعرف أنه قضى يوم اليمامة في القتال مع مسيلمة.
بالتأكيد عمر يعرف، إذن لعله ظن الآية مكتوبة على ورقة، أو حجر رقيق، أو جريدة، وهي تحتفظ بها.
أياً ماكان ظن عمر. فقد قلب عليها، بسؤاله، ذكريات، تود لو تنساها.
تحصن مسيلمة، ومن معه، في حديقة، أسموها، فيما بعد، حديقة الموت، لكثرة من قتل فيها. كان أبو بكر قد أرسل عكرمة بن أبي جهل على رأس لواء، وفي أثره شرحبيل بن حسنة، على رأس لواء آخر، وأمره بمعاونة عكرمة. لكن عكرمة تعجل بالهجوم، ليسبق إلى النصر. انفرد به مسيلمة وهزمه.
ولم يصغ شرحبيل لنصيحة أبي بكر، بالانتظار، حتى يأتيه جيش خالد بن الوليد. تعجل الهجوم أيضا، وهزمه مسيلمة، وشتت رجاله.
وبات مسيلمة، مزهوا بنصره، وقد التف حوله منة ألف مقاتل. بينما يجهز أبو بكر، من اصحاب محمد، ثلاثة عشر ألف مقاتل، على رأسهم خالد بن الوليد.
وأسكر مسيلمة ضم الرجّال بن عنفوة اليه، واستمر، يقول للناس أنه نبي.
كان أبو القاسم، قد أرسل الرجّال، إلى مسيلمة، لينصحه، بالرجوع إلى الدين، والتخلي عن ارتداده. ولكن الرجّال بدلا من ذلك، أشاع بين الناس، أنه سمع أبا القاسم يقول أن مسيلمة أشرك معه في النبوة.
كاد جيش خالد أن ينكسر، فانتبه كبار الصحابة للأمر، وصاحوا:
ـ خلصنا ياخالد.
أدرك خالد أن أغلب جيشه من الأعراب، أهل النجوع والقرى، فكان أن ميز العرب، أهل الحضر، وحفظة القرآن، عن الأعراب، فكون طليعة للجيش من ثلاثة آلاف مقاتل، وأخذ كبار الصحابة يتنادون:
ـ ياأصحاب سورة البقرة.
ـ ياأصحاب محمد

تآلف الرجال، كأنهم رجل واحد، بثلاثة آلاف ذراع. وحولت الحمية، السيوف التى فى أيديهم، إلى آلاف آلاف السيوف، وهم يلوحون بها ذات اليمين، وذات الشمال.
وكان أبو حذيفة ينادى:
ـ ياأهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال.
رددت عاتكة فى نفسها:
وزينوه ياأبا حذيفة، وتقدموا الصفوف.. وتقدمت يازيد تحمل راية المهاجرين.. أعرفك لاتتراجع أبدا.. وصمد معك من صمد.. حتى قضى منكم ياحملة القرآن أكثر من سبعمئة رجل..
تساءلت عاتكة فى مرارة: لماذا ميزتهم ياخالد.. لماذا لم تتركهم متناثرين وسط الأعراب..؟! هل خشيت أن يحدث ماحدث لعكرمة فى أول المعركة..
نعم.. حققت النصر.. ولكن.. الثمن غال.

[٢]

وجدت عاتكة، فى ضيافة أم ورقة، النوار، وأم خارجة، وبعض نسوة، لاتعرفهن.
سألت إحداهن:
ـ جاء فى القرآن «يسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولاتقربوهن حتى يطهرن» فهل نقرأ «يطهرن» بتسكين الراء أم بتشديدها..؟
ردت أم ورقة:
ـ كلتا القراءتين صحيحتان
سألت امرأة أخرى:
ـ هل يختلف المعنى، من قراءة لأخرى..؟
تفكرت أم ورقة قليلا، وقالت:

ـ المعنى يختلف، ولكن التفسير واحد.

نظرن إليها غير فاهمات، وتطلعت النوار، وأم خارجة، إليها باهتمام، قالت أم ورقة:

ـ إذا قرأنا «حتى يطهرن» بتسكين الراء، فمعناها حتى تطهر المرأة بعد انقطاع المحيض أى بعد زوال سبب عدم كونها طاهرة، أما إذا قرأناها بتشديد الراء، فمعناها بعد تطهير بدنها بالاغتسال. وعلى ذلك فلا تعارض بين القراءتين، وتستطيع المرأة أن تمارس حياتها العادية، فور انقطاع المحيض، سواء اغتسلت أم لا. سألت امرأة:

ـ ولماذا لانلغى قراءة التسكين، ونكتفى بقراءة التشديد

ردت أم ورقة:

ـ تعددت القراءات، للتيسير على الناس.. لنفرض أن امرأة، زال عنها المحيض، ولم تجد ماءً للاغتسال. فهل تتوقف عن ممارسة حياتها العادية..؟!

صمتن جميعا، يستوعبن ماقالته. لحظت أم ورقة، وجوم عاتكة، وعزوفها عن الكلام.

سألتها، ممازحة:

ـ زواج جديد..؟!

أدركت عاتكة، ماتلمح إليه أم ورقة. فقد ردد بعض الناس، بعد زيارة رسول ابن الخطاب لها، أنه جاء يخطبها لعمر. أخبرتها عاتكة عن سبب مجيئه. أطرقت أم ورقة قليلا، وقد خمنت أن هذه الزيارة، قد قلبت عليها الذكريات. أخذت أم ورقة يمنى عاتكة فى حنان، بين يديها الجافتين المعروقتين، كأنها تقول لها، لاداعى لأن تحزن صاحبة هذه اليد البيضاء، الرخصة. أستأذنت عاتكة فى الذهاب، متعللة، أن الظلام على وشك السدول. طمأنتها أم ورقة، أنها سترسل معها، من يوصلهاإلى دارها، وهل من المعقول أن تترك هذه الفتنة، تسير وحدها فى الظلام.

تبسمت عاتكة، وقد شعرت بالخجل، وزال بعض ما بنفسها من هَمّ.

التفتت أم ورقة نحو النوار، وقالت:
ـ لست باشة كعادتك.
أفاقت الكلمات، النوار، من سرحانها، وقالت:
ـ كيف أبش، وأنا لم يغمض لى جفن..؟!
تعقدت غضون وجه أم ورقة، وقالت:
ـ خير، كفى الله الشر.
أطرقت النوار، فقالت أم خارجة:
ـ كلف الخليفة أبو بكر، زوجى زيدا، بجمع القرآن.
نظرت أم ورقة، بعينيها الكليلتين، إلى النوار. أحست بالرغبة فى التخفيف عنها، ولكنها، لاتدرى كيف. وأيقنت أنها مهما فعلت، أو قالت، ستظل النوار قلقة، حتى ينتهى ولدها زيد من مهمته.
أردفت أم خارجة:
ـ ومن ساعتها، وزيد لايقر له قرار، ولعله بلغك ماقاله للخليفة.
نفت أم ورقة، أنها سمعت شيئا، فاستمرت أم خارجة:
ـ قال له: "فوا الله لو كلفونى نقل جبل، ماكان أثقل على، مما أمرتنى به من جمع القرآن"
قالت أم ورقة فى نفسها: وأنت أيضا ياأم خارجة لن يقر لك قرار، حتى ينجز زيد عمله، ومن يدرى، قد يستغرق الأمر عاما، أو بعض عام.
قالت أم ورقة:
ـ موفق إن شاء الله
ردت النوار:
ـ ليس الأمر، أمر توفيق
ظنت أم ورقة، أن مبعث هذا القول، خشية النوار، أن يخطىء زيد، فى كتابة كلمة، أو فى ترتيب آية، وماقد يترتب عليه، من تغيير حكم فى الشريعة، أو تقرير رأى فى العقيدة. وقالت فى نفسها: ياله من موقف،

وجد زيد نفسه فيه، وهل يستطيع زيد، أن يتحمل تبعة، أى خطأ لو حدث..؟! ومن جهة أخرى، لايستطيع زيد أن يعتذر عن العمل، لأبى بكر، وهو من أحفظ الناس للقرآن، وكان من أكثر الناس قربا من أبى القاسم، وكان أبو القاسم يقرأ عليه الآيات ليحفظها، وكثيرا ماعرض زيد على أبى القاسم مايحفظه.

بل أن زيدا، هو الذى عرض، أكبر قدر من القرآن، على أبى القاسم، فى عام وفاته.

قالت أم ورقة، للنوار:

ـ لاتقلقى.. سنكون جميعا نِعْم المعاونين له.

وأردفت أم خارجة:

ـ كلف الخليفة، لمساعدته، عبد الله بن مسعود، وأُبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، وهم من أكثر الناس حفظا لآيات القرآن، وكانوا يكتبونه على عهد أبى القاسم.

أرسلت النوار تنهيدة، وقالت:

ـ أعلم ذلك.. ولكن الأمر، هو، كيف يفعل زيد شيئا لم يفعله أبو القاسم، أو يوصى به..؟!

فاجأ السؤال أم ورقة، اضطرب فكرها، وتحيرت، كيف تجيب. وأدركت الآن، فقط مدى القلق الذى يعصف بالنوار. هل ماسيفعله زيد صوابا، أم خطأ. ووقفت على طرف لسانها، كلمات، خشيت أن تظهرها، حتى لاتزيد من قلق النوار. لكن النوار، كأنما قرأت مابطرف لسانها، قالت:

ـ ولم يأت فى القرآن، أى ذكر لجمع آيات القرآن وسوره، فكيف نفعل مالم يأمر به أبو القاسم، ومالم يأت ذكره فى القرآن..؟!

إرتأت أم ورقة، عدم الرد الآن، فقالت تهدئها حتى تتمعن فى الأمر:

ـ مادام الخليفة أبو بكر أمر بذلك، فلاشك أنه رأى خيرا للناس

سألت النوار:

ــ ولكن.. مارأيك أنت..؟!
حاولت أم ورقة، إرجاء، الإجابة، فسألت بدورها:
ــ ومارأى قاضى المدينة عمر بن الخطاب..؟!
ردت أم خارجة:
ــ عمر هو الذى اقترح الأمر على أبى بكر، بعد أن هاله كثرة عدد القتلى من قراء وحفظة القرآن يوم اليمامة.
أطرقت أم ورقة متفكرة، أنقذها من حيرتها، دخول عنقودة باكية، شاكية من خارجة، معايرته لها وهما يلعبان بجوار النخيل، فى ساحة الدار.
أخذت أم خارجة عنقودة فى حضنها، وربتت على كتفيها، حتى كفت عن النشيج، وهى تطلب منها أن تخبرها بما حدث. ومن خلال دموعها، قالت عنقودة أن خارجة، منعها، من تسلق النخلة، قائلا: أن البنت لاتتسلق النخلة. ودفعها حتى سقطت على الأرض.
نفى خارجة ماقالته، وادعى أنها رفسته بقدمها.
ولولوت عنقودة، وقالت أن خارجة قال لها: أنت لست أختى
نهته أم ورقة، عن قول ذلك ثانية، وتوعدته.
فجأة، اندفع سمرة إلى الحجرة. وكاد أن يمسك بخناق خارجة، لولا أن اعترضته أم ورقة.
أشار سمرة إلى خارجة، وقال:
ــ منعنى من تسلق النخلة.
أفلتت عنقودة من أم خارجة. احتضنتها عاتكة. ووقف خارجة متحفزا.
تطلعت الأنظار إليه. فلوح بظهر إحدى يديه، يريهم خدشا بها.
وحانت من أم خارجة، نظرة، نحو عنقودة. وكأنما تراها لأول مرة، لحظت بروز صدرها.
والتقت نظراتها، نظرت النوار، وأم ورقة. خيل إليها أن ابتسامة ترف فى العيون، وسرعان مابانت على جانبى الشفاه.

قالت أم خارجة مهدئة:
ــ سمرة أخوك. ولاداعى للعراك
رد خارجة غاضبا:
ــ ليس أخى
قالت أم ورقة:
ــ صديقك
ــ لا
قالت النوار:
ــ وعنقودة أختكما
تقابلت أعين خارجة وسمرة، وبدا أنهما قد بدآ يشعران بالخجل، لذلك فقد التزما الصمت.
أحست أم خارجة بالحرج، لما سببوه من ازعاج لأهل البيت، فنهضت مستئذنة. وتبعتها النوار، على وعد من أم ورقة، أن تزورهم فى القريب. ولم تكد أقدامهم تغادر الباب حتى استوقفتهم أم ورقة وقالت:
ــ معكم عاتكة، أوصلوها فى طريقكم.

(٣)

قامت أم ورقة فى البكور، تعتزم الذهاب إلى مقر أعرابى، على مقربة من المدينة. كانت تعرف، أنه حفظ، على عهد أبى القاسم، آية «ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا..» أرادت أن تعرف، كيف قرأ عليه أبو القاسم كلمة «فتبينوا»، لأنها سمعتها من إحدى النسوة «فتثبتوا». حاولت أن تتذكر، كيف سمعتها من أبى القاسم. عبثا تشحذ ذاكرتها. وبدأت، تساورها المخاوف، أن تنسى، ماحفظته، من القرآن، على توالى الأيام.
وتساءلت أم ورقة، وإذا كانت لكلمة، «فتبينوا»، قراءتان، فأيهما المتواترة..؟!.

وصلت إلى مقر الأعرابى، أخبرتها بنته، أنه قضى فى غزوة "بئر معونة". تهالكت أم ورقة، على أقرب مكان منها. ساندتها الفتاة، حتى لاتقع. تذكرت أم ورقة، تلك الغزوة، التى قضى فيها، من صحابة أبى القاسم، مايقرب من سبعين رجلا، كانوا من خيرة قراء القرآن.

استردت أم ورقة أنفاسها، ودعت للأعرابى بالرحمة. وسألت:

ـ ألم يترك رقائق من الجلد أو الحجارة، مكتوبا عليها، آيات من القرآن..؟!

ردت الفتاة:

ـ كانت عندى، بعض الآيات المكتوبة على جريد النخيل، وحضر أعرابى، من قرية، على مسيرة نصف يوم من هنا، ناحية الشرق. إلتمس عندى بعض الآيات، وحيث أننى، لاأكتب ولاأقرأ، فقد أعطيت له ماعندى، فهو أقدر على الإفادة منها، خيرا منى.

شكرتها أم ورقة، على حسن استقبالها، واعتزمت الذهاب إلى الأعرابى، لتلتمس عنده، الآية التى تريدها.

انتظرت أم ورقة، عند أطراف القرية، حتى لمحت بعض الأعراب، يسيرون بإبلهم فى اتجاه الشرق. سألتهم أن يوصلوها، إلى غرضها، فرحبوا بها. أركبوها ظهر بغلة. بعد أن أوغل الركب فى المسير، أحست بحمية أشعة الشمس. وشعرت بالعطش. خجلت أن تطلب، منهم، السقيا، خشية أن تعطل الركب، أو تقلل من مائهم، فربما كانوا على سفر طويل. بعد قليل، بان أن الشمس كأنما صهرت الرمال، وأحست حرارة شديدة، تنبعث من الأرض، وتسقط من السماء. أخرجت طرف لسانها، لترطب شفتيها الرقيقتين، فلامس اللسان، شفتين متشققتين، وحين عجز اللسان، عن اتمام مهمته، أدركت أن ريقها قد جف تماما، ووخزها سقف حلقها.

لم تجد بدا من طلب شربة ماء. أجيبت إلى طلبها، وسألوها ان كانت فى حاجة إلى طعام. اعتذرت، شاكرة، ومقدرة لهم كرمهم، وهى التى لم تذق شيئا منذ خرجت، سوى تمرتين، معللة الأمر لنفسها وقتها، أنها ستعود سريعا.

تدحرجت الشمس، إلى وسط السماء. توقف الركب، لتأدية صلاة الظهر. بعد الصلاة، دلوها إلى الطريق التى تنشدها. واتجهوا وجهة أخرى. ودت أم ورقة، لو سألتهم، بعض الماء، تغسل وجهها، وترطب يديها وقدميه. أمسكت، وجَرّت جسدها الهزيل، حتى وصلت إلى مقصدها. سألت عن الأعرابى، الذى تنشده، فدلها أحدهم على داره. وحين وصلت، لم تستطع الصبر، حتى يدعوها، الرجل، إلى الجلوس، وافترشت الأرض.

تبسم الأعرابى. وغادرته نظرة الترفق، وهو يطالع قامتها القصيرة، وحلت محلها، نظرة تقدير، وهو يرى، الخطوط الممدودة على قورتها، وشعاع التصميم، يطل من عينيها، رغم كللهما.

وحين همت أم ورقة، أن تخبره، عما جاءت من أجله، استمهلها مضيفها، حتى يقوم بواجب الضيافة، وقدم لها زاداً وماءً.

وحين علم، سبب مجيئها، قال:

ــ كان يسعدنى، أن أقضى لك حاجتك. ولكنى حقا، لاأذكر. كيف كنا نقرأ «فتبينوا»

بعد، الفورة، التى أحدثها، الطعام والشراب، فى جسدها، همدت ثانية. قال الأعرابى:

ــ كانت عندى بعض الآيات المكتوبة، جمعتها من هنا وهناك.

أمسك الرجل عن الكلام، فتطلعت إليه أم ورقة، متعجلة.

أشار إلى مجرى، بين صخور قريبة، ويشق الأرض فى منحدر، وسأل:

ــ هل ترين هذا المجرى..؟!

غلفت، صوت أم ورقة، رنة أسف، وهى تقول:

ــ هو السيل إذن..؟!

جاءها الرد، كأنما، من جوف بئر عميقة:

ــ جرف خيامنا، ودورنا، ولم يبق على شىء.

وجمت أم ورقة، ورغم عدم يقينها، من قدرتها على المسير، استأذنت فى الانصراف. أبى مضيفها، أن تغادره، قبل أن تميل الشمس، إلى جانب من السماء.
وأمر براحلة، وبغلام لتوصيلها.
قدرت أم ورقة، والراحلة تسير بها، أن تصل إلى المدينة، وقد غادرت الشمس السماء. لامت نفسها، لأنها لم تردد كل ماحفظته من القرآن كثيرا. لو أنها فعلت، ماكانت فى حاجة إلى السؤال عن كلمة «فتبينوا». وتساءلت: ولكن.. لماذا ألوم نفسى، وابن عباس يقرأ آية «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا مكانا من الله.. » على خلاف الناس جميعا. القراءة الغالبة «فاقطعوا أيديهما» وابن عباس يقرأها «فاقطعوا أيمانهما». أتراها الذاكرة، لم تسعفه مثلى..؟!.. ومن أدراك أنها الذاكرة، وأنه لم يسمعها كذلك، من النبى أبى القاسم، كوجه من وجوه القراءات المختلفة..؟ ولكن لماذا ينفرد ابن عباس وحده بهذه القراءة، رغم تواتر القراءة الأخرى، التى قال بها أناس لم ير بعضهم بعضا، ولم يسمع منهم الشامى، عن الكوفى..؟!
وهدأت نفسها، قليلا، وهى تستعيد، مقولة مضيفها الأخير، أنه سمع أن الآية التى تلتمسها، مكتوبة عند أعرابى، فى قرية، على مسيرة يومين من المدينة، ناحية الغرب. تساءلت أم ورقة .. أتراه بالقرب من يثرب.. ومتى ياترى يمكننى الوصول إليه. نهرت نفسها، لأنها تستبعد المسافة، وقالت: وماذا لو كان هذا الرجل، قد استقر به المقام، يرعى تجارة فى الشام، وهل إذا وجدت الآية عنده، أتراه يذكر حقيقة قراءة «فتبينوا».

تنبهت أم ورقة، أنها اصبحت على مشارف المدينة، أرشدت الغلام إلى طريق دارها.
تذكرت فجأة، وعدها، للنوار، أن تزورها ومعها الإجابة على سؤالها. لاح

لها الوعد غانما.. ولم تستطع أن تتبين، هل كان بالذهاب إليها الليلة، أو فى الليلة التالية. قررت عندما تصل إلى إلى الدار أن ترسل لها مستفسرة، ومعتذرة عنه، إذا كان الليلة.

ولاتدرى، أم ورقة، لماذا تذكرت الآن، أن زيدا أصيب بسهم يوم اليمامة، وأخذت تحمد الله، أنه نجا من هذه الإصابة.

[٤]

لم تحضر أم ورقة فى الموعد، رغم تأكيده. قلقت النوار، وتساءلت: هل أصابها مكروه..؟، أم ارتأت رأيا، يختلف عن رأى أبى بكر وعمر..؟! ففضلت عدم الحضور.

ترى.. من يدلنى على الرأى الصحيح..؟. عمر رأى ضرورة جمع القرآن، حتى لايذهب كثير منه، بقتل حفظته فى المعارك المختلفة. ولكن.. لماذا لم يأمر، أو يوصى، أبو القاسم بجمع القرآن..؟ لعله، لم يساوره قلق، بشأن ضياعه، وقد جاء فيه، «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون». ولكن لماذا لم يركن عمر لهذه المقولة، وخشى ضياع آيات من القرآن..؟! ومن جهة أخرى، تساءلت النوار، كيف يأمر أبو القاسم بجمع القرآن فى حياته، وكانت تأتى آيات، تعدل من أحكام آيات اخرى، كما كانت تلغى بعض الآيات. اذأ كان عليه أن يوصى بجمعه، بعد وفاته، حيث لاتعديل، ولا إلغاء.

انتصف النهار، لم تحضر أم ورقة، ولم ترسل اعتذارا. نادت النوار خارجة، وسألته أن يذهب للاستفسار عن سبب غياب أم ورقة. تعلل خارجة بانشغاله مع والده. سمعت عنقودة مادار من حديث. عرضت أن تذهب إلى أم ورقة. سرعان ماتراجع خارجة، وقبل الذهاب. تبسمت النوار. تركته يذهب، واعدة عنقودة أن تذهب فى مرة أخرى.

وتذكرت النوار، أنها فى الآونة الأخيرة، لحظت الهدوء يخيم على زيد.

ولم تدر، هل هو هدوء، من قر على رأى، ارتاح له. أم أن الهدوء فى الظاهر، وتحته يعتمل الفكر، بشأن جمع القرآن من عدمه.

وتهيأ لها، أن ثمة بشائر، تجعلها تعتقد، أن زيدا قد مال إلى رأى الخليفة. فهو يسأل كل من يلقاه، إذا كانت عنده آيات، أملاها عليه ابو القاسم.

ولكنه، لم يبدأ العمل الجدى بعد. أتراه اتخذ قراره، ومازال بنفسه شىء، أم مازال مترددا. اذن، هو فى حاجة، الى من يجعله، يتبصر الأمر جيدا، حتى يأخذ الرأى الصحيح، اذا لم يكن قد اتخذه. وهاهى أم ورقة، التى جمعت وحفظت كثيرا من القرآن، ولها مكانتها، عندنا وعند الناس، قد اختفت عند الحاجة إليها.

واستدركت النوار: على الأقل حتى الآن. لا. ليست هذه عادتها، لابد أن شيئا، رغما عنها، أمسكها فى بيتها. على أية حال، بعد قليل، يأتى خارجة بالخبر اليقين. سمعت النوار، وقع خطوات، فى صحن الدار، رفعت رأسها، فإذا بخارجة أمامها.

عاجلته النوار:

ــ ها..

رد خارجة:

ــ أقعدتها ضربة شمس

وجمت النوار، وسألت:

ــ ألم تطلب منك إبلاغى بشىء..؟

رد خارجة بسرعة:

ــ لا

وبعد برهة قال:

ــ آه.. تذكرت.. طلبت أن أبلغك أنها ترى أن ماارتآه أبو بكر وعمر خيرا

سألت النوار، وعيناها لاتغادران عينى خارجة:

ــ متأكد أنت..؟!

نعم.
أشرق وجه النوار. وآنست فى نفسها، ميلا إلى هذا الرأى أسرعت لتخبر زيدا. ولم تلبث أن تلكأت خطواتها. استشعرت شقاء المهمة، لو قبلها زيد.
انتبهت النوار، فجأة، كأنما زلت قدمها، إلى عين ماء باردة. نادت عنقودة، لتذهب إلى رفيدة، وتسألها أن تطبب أم ورقة. أسرعت عنقودة بالذهاب، وخارجة يجرى فى أثرها، ولم تفلح محاولة النوار فى استبقائه، خشية أن يتشاجرا فى الطريق.
نقلت النوار، رأى أم ورقة، إلى زيد. لحظ زيد، الذى بدا، كأنه لايصغى تماما، مما يمور فى نفسه من فكر. أن لهجة أمه مالت إلى الأخذ بهذا الرأى. ولم تفته، ما اعترت لهجتها من رنة الإشفاق.
وحين تطلع زيد، إلى عينيها، صدق ظنه، وقد اختلط فى أديم العينين، الإشفاق بالحنان، وقد غلفت ذلك كله، إشراقة.. أنارت رهافتها ومشعة حبها له وما تستشعره، من ثقل المهمة، ومن قدرته، فى نفس الوقت، على القيام بها.
شكرها زيد فى نفسه، وأحس بتقدير وحب جارف نحوها:
وسأل زيد أمه:
ــ لماذا لم تحضر أم ورقة لتبلغنى بنفسها..؟!
ردت النوار:
ــ أقعدها المرض
نظر زيد إلى أمه بدهشة. حاولت النوار، نفى ماظنه تكاسلا منها، فقالت:
ــ أرسلت لها رفيدة.
ولم تكد تكمل عبارتها، جتى تدفق الندم من أعماقها: حقا رفيدة لها خبرة فى تطبيب المرضى، ومداواة الجرحى. يكفى أن سعداً بن أبى وقاص، حين أصيب يوم الخندق، أمر أبو القاسم، بحمله إلى خيمة رفيدة. لا.. كان يجب أن أذهب اليها. ربما كانت فى حاجة الى من تؤنس قعدتها، فى مرضها. وينبغى أن نشعرها، بمدى أهميتها عندنا وعند الناس.

دارت النوار وجهها من زيد، وأسرعت، لتضع على جسدها ملابس الخروج، تلاحقها كلمات زيد الضاحكة:

- على مهلك يا أم

لم تلتفت النوار إليه ونادت أم خارجة، لترافقها فى الزيارة.

(٥)

ذهبت عنقودة إلى دار ابن عباس. أخبرتها زوجته، أنه ذهب الى رجل، يسكن على مشارف المدينة، ناحية الجنوب، يلتمس عنده حديثا لأبى القاسم.

شكرتها عنقودة. وفى الطريق، سألت نفسها: هل يصح، أن أعود دون أن أنجز مهمتى. وتذكرت خارجة، وشقيقه الأكبر سعيدا، أرسلهما أبوهما بالأمس، إلى كثير من الصحابة، لسؤالهم عن آيات مكتوبة لديهم من القرآن. وأحضروا له كثيرا من الآيات المكتوبة.

ردت عنقودة على سؤالها: لا. لايصح أن أعود خالية اليدين.

ذهبت إلى الرجل، الذى قصده ابن عباس. كانت الشمس قد غادرت وسط السماء بقليل. ومع ذلك، صعب عليها المشى، فمازالت ضربات الشمس موجعة. تحاملت على نفسها، حتى وصلت إلى الدار المقصودة.

وجدت ابن عباس، قد افترش رداءه أمام الباب، والريح تسف رملا ناعما، إلى جسده ووجهه. وبدا أنه لا يأبه له.

خمنت عنقودة، أن صاحب الدار، قد غفا قليلا وقت القيلولة. ولم يشأ ابن عباس أن يفسد عليه قيلولته. علت البشاشة وجه عنقودة، لعثورها على ابن عباس. وفجأة، أمسكت عليها خطواتها، وتساءلت: اذا كان ابن عباس، لم يشأ ان يفسد على الرجل قيلولته، فهل يصح أن أفعل ذلك مع ابن عباس، إذا كان غافيا هو الآخر. وهل من اللائق أن أشغل ابن عباس بما حضرت من أجله، قبل أن ينهى مهمته، أم انتظر حتى ينتهى، ويصحبنى معه إلى داره،

ليحضر، ماقد يكون عنده، مكتوبا من آيات القرآن. أو يحضر معى إلى مجلس أبى زيد، ليفضى إليه، بما وعته ذاكرته، من آيات القرآن.
خشيت عنقودة، أن يطول انتظارها، فيقلق عليها أهل بيتها. واستبعدت أن تنصرف، خالية اليدين، بعد كل مابذلته من جهد، فيعايرها سعيد وخارجة.
تنسمت عنقودة، ريحا لينة، فقدرت أن الشمس مالت، وأن العصر بات وشيكا وسرعان ماينهض صاحب الدار.
أملت عنقودة، أن ينتهى ابن عباس، مما حضر اليه، سريعا، حتى تفضى إليه بما تريد. ولحظت خيالا، مائلا، يزحف ناحيتها. رفعت رأسها، فوجدت سمرة أمامها، وأنفاسه متلاحقة.
خمنت على الفور، أنه مرسل للبحث عنها، وأن سعيد وخارجة، لابد قد ذهبا، لبعض الصحابة، ولم يعودا بعد.
بادرها سمرة:
ــ تتشمسين..؟!
قالت عنقودة:
ــ أنتظر ابن عباس.
وأشارت اليه، فى رقدته، أمام الدار.
قال سمرة
ــ دعك منه الآن، فهم قلقون عليك
صعب على عنقودة، أن يضيع انتظارها هباءً. قدمت رجلا، وأخرت أخرى، تبحث عن كلمات، تجعل سمرة يطاوعها. واذا بآذان العصر، يتخلل الكون، وابن عباس ينهض.
قالت عنقودة:
ــ مهلا..
وأقبلت على ابن عباس، وفى أثرها سمرة. أسرت إليه عنقودة بما جاءت من أجله

أخبرها ابن عباس، انه سيحضر إلى زيد، بعد صلاة العشاء. وحين علم، أنها فى أثره منذ الظهيرة، كبر الأمر عنده، وعاتبها لأنها لم تنبهه منذ حضرت.

واذا بالباب يفتح، وصاحب الدار، وقد رأى ابن عباس، يقول:

ــ ياابن عم النبى.. ماجاء بك.. هلا أرسلت إلىَّ فاتيك؟

رد ابن عباس:

ــ لا.. أنت أحق أن أسعى إليه.

وسأله عن الحديث، الذى يلتمسه عنده. وطلب منه، قبل أن يجيب، أن يصليا العصر، وأن يدبر بعيرا، لتوصيل عنقودة وسمرة، الى دار زيد.

فى طريق العودة، لمحت عنقودة، على قتب البعير، كتابة، مرت بإحدى يديها عليها. أحست بملمس الخشب الناعم، تتخلله فجوات خشنة. سألت قائد البعير المترجل، عن فحوى الكتابة وقبل أن يجيب، أسرع سمرة قائلا:

ــ آيات من القرآن..؟!

التفت الرجل إليها، وقال:

ــ نعم

قالت عنقودة:

ــ أريدها، لأبى زيد

قال سمرة:

ــ أنا الذى سأريها له.

قالت عنقودة:

ــ أنا الذى رأيتها أولا.

قال سمرة:

ــ أنا الذى عرفت أنها قرآن.

غضبت عنقودة، ووضعت كلتا يديها، على القتب، وقالت:

ــ .. لن تسبقنى

التفت الرجل نحوهما، وقال:

ـ لا تتشاجرا..
وبعد قليل، وقد استقبل الطريق بوجهه، قال:
ـ هو لكما. واستمر كأنما يحدث نفسه:
ـ كيف أركب البعير دون قتب
قالا فى نفس واحد:
ـ سنعيده لك.
وعندما وصلوا الى البيت، زال غضب زيد، لتأخر عنقودة، حين أنبأته عن آيات من القرآن على قتب البعير. هَمّ سَمُرة بالكلام. فصاحت عنقودة:
ـ أنا الذى وجدته ياأبى
صاح سمرة:
ـ قتبى ياعمى
تبسم زيد، ووضع يده على رقبة سمرة، وقال:
ـ أين قتبك يافتى..؟!
ابتسم سَمُرة، وقد ذهبت بانفعاله، دعابة زيد. وضحكت عنقودة.
قال سمرة:
ـ تضحك منى..؟!
قال زيد:
ضحك البنات له حلاوة البلح الأمهات.
وسأل زيد الرجل:
ـ أملى عليك أبو القاسم هذه الآيات
رد الرجل:
ـ نعم
سأل زيد:
ـ هل من شاهد..؟
صمت الرجل قليلا، وقال:
ـ جارى.. ولكنه قضى
وجم زيد، وعلا الأسف وجهى عنقودة وسمرة.

استدرك الرجل، وقد بدا أنه تذكر شيئا:
ـ عندى شاهدان.. أظنهما رأيانى أكتبها من فم أبى القاسم.
سأل زيد:
ـ ظن أم يقين
تفكر الرجل قليلا، وقال:
ـ تذكرت.. تذكرت جيدا.. عندى شاهدان سمعا النبى أبا القاسم يملى على، ورأيانى أكتب الآيات.
قال زيد:
ـ على بهما اذن.
قال الرجل:
ـ غدا بإذن الله
أخذ زيد، عنقودة وسمرة، تحت جناحيه، وقال:
ـ بوركتما
وربت بيديه على أكتافهما، وفى غفلة منه أخرجت عنقودة لسانها لسمرة مغيظة.

(٦)

بعد آذان العصر، أعلن المؤذن:
ـ أيها الناس، من عنده آيات مكتوبة من القرآن، فليذهب بها الى زيد بن ثابت، والجزاء والثواب عند الله.
وكرر النداء عدة مرات.
عندما سمعت أم خارجة، ماأعلنه المؤذن، التفتت إلى النوار، وقالت:
ـ اذن.. فقد وصل زيد الى يقين.. لعله ينعم بشىء من الراحة.
تطلعت إليها النوار، وقالت:
ـ راحة..!؟.. من اليوم، لن يعرف طعم الراحة.
انتهيتا من صلاة العصر. بعد قليل سمعتا دقا على الباب. صاحت أم خارجة:

— من عنقودة.

ردت:

— رجل معه صحائف بها آيات من القرآن.

قالت أم خارجة:

— أدخليه الى مجلس أبيك زيد.

لم تكد تفعل، حتى دق الباب ثانية.

فتحت عنقودة الباب. وجدت أمامها رفيدة. رحبت بها، وأدخلتها الى النوار وأم خارجة. رحبتا بها. استفسرتا منها عن صحة أم ورقة. طمأنتهما، وأخبرتهما، أن معها رقاعا من الحجارة. مكتوبة عليها آيات من القرآن، تحتفظ بها من زمن أبى القاسم.

اصطحبتها عنقودة الى مجلس زيد. دق الباب ..

تبادلت النوار وأم خارجة النظرات، ووضح من نظرات النوار، أنها تقول لها: ألم أقل لك..؟!

نهضت أم خارجة، لتفتح، لعلها تجد أحدا أتى لغرض آخر، فتنفى توقع النوار. وحين فتحت ورأت بالباب، رجلا فى يده حزمة من الجريد، أدركت على الفور، أن بها آيات من القرآن. غلب عليها الضحك. تماسكت، حتى أوصلت الرجل إلى مجلس زيد. وحين عادت الى النوار، انفرط منها الضحك، كأنها تعتذر وتقول لها: «كان الصواب معك».

وضحكت النوار، هى الأخرى، كأنها تخفف عنها، وتقول لها: «لا عليك».

أطلت أم خارجة من فرجة الباب، لترى اذا كان زيد فى حاجة الى شىء، قبل أن تنصرف الى عملها فى البيت. وحين وجدته يقلب فى الصحائف أمامه، ولم يلتفت اليها، انسحبت فى صمت.

تفحص زيد الصحائف، وضع الصحائف الورقية على جنب، والصحائف الجلدية، على جانب آخر. وسأل الرجل عن مصدر تلك الصحائف، وتاريخ كتابتها، ومن الذى أملاها عليه، والمناسبة التى قيلت فيها كل آية.

وهل أملاها أبو القاسم فى المدينة أم فى مكة، وهل جاءت الآية صيفا أم شتاء. وفى أى وقت من النهار، صباحا، أم مساء، وعند أى من الزوجات كان أبو القاسم وقتها. استرجع زيد فى عقله، مايذكره عن هذه الآيات. وقارن بسرعة، بين ما يدلى به الرجل. ومارسخ فى عقله. واذا ما عنت له ملاحظة، دونها، ليعاود السؤال، أو ليستوثق بشأنها من غيره.

وحين انتهى من الرجل. تفكر قليلا، يبحث عن سؤال لم يسأله. ولما لم يجد طلب منه أن يحضر له شاهدين، على كل صحيفة ،سمعا أبا القاسم يمليها ورأياه يكتبها. استفسر الرجل:

ـ والصحيفة التى آلت إلىّ مكتوبة

رد زيد:

ـ احضر لى من أخذتها منه، وليحضر من شهده.

شكر الرجل وأذن له بالانصراف. التفت الى رفيدة، واستفسر منها عن حال أم ورقة.

اعتذر زيد لصاحب الجريد، أن يستمهله قليلا، حتى يفرغ من رفيدة، ليصرفها أولا، خاصة وقد أوشكوا على الدخول فى وقت المغرب.

تفحص زيد، ما أتت به رفيدة، وأخذ يسألها عن تاريخ كل رقعة، وكيف آلت إليها، وشهود كل رقعة، وهل يمكنها إحضارهم أم لا..

دق الباب، فانتزع زيد نفسه مما هو فيه، وصاح:

ـ عنقودة.

حضرت إليه. طلب منها، بعد أن تفتح، أن تسأل أم خارجة، أن تحضر شراباً للضيوف. أدخلت عنقودة إليهم، فاطمة بنت الخطاب، التفت زيد مبتسما الى صاحب الجريد، ففهم هذا عنه، أنه سيرجنه قليلا، حتى ينتهى من بنت الخطاب.

ابتسم الرجل إلى زيد، بما يعنى. لاتشغل بالك من ناحيتى.

سأل زيد فاطمة:

ــ وجدت الصحيفة التى بها «طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى»..؟
أجابت فاطمة بالإيجاب، وناولته الصحيفة. سألها زيد أن تحضر شاهدين رأيا أبا القاسم يمليها عليها. ردت فاطمة، أنها لم تكتبها. وأن الذى كتبها فى الغالب هو خباب بن الأرت.
قال زيد:
- اذن علينا بخباب.
ردت فاطمة:
ــ فيما علمت هو مريض
رد زيد:
ــ نسعى إليه
قالت فاطمة:
ــ عندى شاهدان، سمعا خبابا يقرأ «طه» أيام النبى.. زوجى سعيد بن زيد وأخى عمر بن الخطاب، بالإضافة إلى شهادتى. وجميعنا يحفظها جيدا..
ضحك زيد وقال فى نفسه: لاشك تحفظونها جيدا، فقد كاد ابن الخطاب يبطش بك وبزوجك حين عَلم بإسلامكما، ولكن بعد أن سمع خبابا يقرأ لكما «طه»، .. أسلم، وهدأت نفسه، فكيف لاتحفظونها.
قال زيد، وقد انتزع نفسه من أفكاره:
ــ اسمعينى فاطمة. لاأريد شهودا على القراءة أيام النبى، ولكنى أريد شهودا على الكتابة من النبى.
نهضت فاطمة مودعة، واستأذنت رفيدة، لتنصرف برفقتها.
إلتفت زيد الى صاحب الجريد. دق الباب، أصغى قليلا، ولما لم يدخل عليه أحد، صاح:
ــ افتحى عنقودة
وحين لم يأته رد عنقودة، نهض إلى الباب، فوجد النوار قد سبقته إليه.
جاءه رجل، يحمل ثوبا قديما، عقده من فتحته وربط كميه. أفرغ الرجل

من الجلباب، أكتافا جافة، قلب فيها زيد، فعرف أنها من عظام الأبعر الشياه، وطالع عليها آيات من القرآن.
أجلس زيد الرجل، واستمهله، ريثما ينتهى من ضيفه. أُذن لصلاة المغرب. قبل أن ينهضوا للصلاة، استمحهما زيد برهة. خرج الى أم خارجة وطلب منها أن تعد طعاما للضيفين، وأن تزيد من الطعام، تحسبا لمن قد يأتى بعد العشاء.

[٧]

نطق زيد اسم أحد الشهود. وتطلع إلى الحضور. بعد فترة أمعنوا فيها التفكير، قال معاذ بن جبل:
ـ لانتهمه بشىء.
وأضاف ابن مسعود:
ـ ولم تشب سلوكه شائبة.
قال زيد:
ـ وأشهد أنه كان من المترددين على مجلس أبى القاسم.
وخلصوا، إلى أنه من المعقول، أن يكون قد شاهد النبى يملى الآيات، التى هم بصددها وتساءل معاذ: هل هو يجيد الكتابة؟!
قال أبى بن كعب:
ـ حين يحضر للشهادة علينا التأكد من ذلك.
قال زيد:
ـ لاتنسوا، أننا بصدد شهادته عن الإملاء، لا عن الكتابة.
ثم سأل: هل عند أحدكم مايضيفه..؟
قال معاذ:
ـ فلنعلن فى المسجد، أننا قبلنا شهادة فلان، فى آيات كذا وكذا، ومن عنده تهمة، أو شبهة، فليأت بها.

استحسنوا - جميعا - الرأى، وطلبوا من زيد، أن يعلمهم باسم الشاهد التالى.
قبل أن ينطق زيد، قال ابن مسعود:
ـ عندى قول بسيط..
ـ هاته..
استمر ابن مسعود:
ـ قبل أن يدلى أى شاهد بشهادته، فليذكر لنا المناسبة التى قيلت فيها الآيات، ومن كان حاضرا، ونقارن ذلك بما نعرفه، ونعيه.
وافقوا على كلامه. ونطق زيد اسم الشاهد التالى.
قال ابن مسعود:
ـ معرفتى بالرجل بسيطة، ولم أره يتردد على مجلس أبى القاسم كثيرا.
قال أبى:
- هذا لايمنع أن يكون قد نقل عنه شيئا.
قال معاذ:
ـ لم أسمع بالرجل فى غزوة من الغزوات.
قال أبى:
ـ لعل لديه عذره، ولعل الآيات قد انتقلت إليه من آخر.
قال زيد:
ـ أردت أن أسمع آراءكم، قبل أن أدلى بما عندى
تطلعوا اليه منتظرين، ولكن هذا صفق بيديه. أطل خارجة من فرجة الباب، فصاح فيه زيد:
ـ أما زلت هنا..؟!
رد خارجة:
ـ انتظرت عودة سعيد.
عاجله زيد:
ـ وهل حضر..؟

ـ نعم.
قال زيد:
ـ اذهبا الساعة. قبل أن يؤذن لصلاة الظهر. واجلسا عند باب الجامع. واسألا كل داخل. إذا كان لديه. آيات من القرآن مكتوبة. أو محفوظة فى رأسه.
انسحب رأس خارجة. فسأل زيد:
ـ هل حضر سمرة..؟
رد خارجة:
ـ منذ الضحى
ـ أدخله.
دخل سمرة. طالعته شيخوختهم، هذا غزا المشيب لحيته، وذاك انحنى ظهره، أو كاد. واسمرت بشرتهم. ونفرت عروق أيديهم.
قال زيد:
ـ أعد عليهم ما أخبرتنى به عن الرجل
ونطق اسم الشاهد.
امتلأت نفس سمرة بالهيبة فامتنع عليه القول.
وسع له زيد فى ابتسامته، وحنا عليه بنظراته.. وصبر حتى بان له ان سمرة، قد امتلك زمام نفسه، فتطلع إليه بعينين ودودتين. وربت على كتفيه مشجعا، قال سمرة:
ـ الشاهد جارنا
سأل أبى:
ـ ماذا تأخذ عليه..؟
قال سمرة، وقد بدأ يستعيد تماما زمام نفسه:
ـ الشاهد يعمل حمالا. ينقل على بعيره لقاء أجر. وعنده جمل وناقة. ذات يوم رُوعنا فى البكور، فإذا بالرجل. يجرى فى الطريق مستغيثا.

وجمله فى أثره. وكاد الجمل يدركه، لولا أن لقيه أعرابى، تمكن منه، بعد أن اختفى صاحبه عن ناظريه.

وسألت الأعرابى عن سبب، غضبة الجمل. أخبرنى، أنه لايرجح، سوى سبب واحد، يجعل الجمل يهتاج، على النحو الذى رأيناه عليه، أن يكون صاحبه، قد اقتحم خلوته مع ناقته. ولما كان الجمل شديد الخجل، فقد انطلق فى أثر صاحبه، ليفتك به.

شكر زيد سمرة، وأذن له بالانصراف. قال معاذ:

ـ لايمكن أن نقبل شهادة رجل، لم يراع حرمة جمله.

قال أبى:

ـ ألا يصح أن نلتمس له عذرا، أنه لم يكن يعرف بأمر خلوة التزاوج..؟!

قال ابن مسعود:

ـ لهذه الخلوة علامات.. وإذا كان الرجل لايدرى بأمر جمله، وناقته، فهل يدرى بأمر آيات مكتوبة..؟!

قال معاذ:

ـ من لم يتحرج، فى جرح مشاعر جمله، لن يتحرج فى إضافة كلمة، أو إنقاص حرف.

قال زيد مداعبا ابن مسعود:

ـ لماذا أنت صامت شيخنا..؟!

رد ابن مسعود ضاحكا:

ـ لست شيخكم.. وفيكم من هو أحنى ظهرا منى..

وأردف:

ـ ولا أنت صبينا

ضحكوا جميعا.. وقال زيد:

ـ ولا هذه..

استمروا يضحكون، حتى قال ابن مسعود:

ـ لهجة الفتى صادقة.. لكن.. هل يصح أن نقبل شهادة.. من بلغ - بالكاد - سن الحُلُم..؟!
سأله أبى:
ـ إذا تزوج.. ألا ينجب..؟
رد ابن مسعود:
ـ نعم.. لكنه لم يعرك الحياة.. وربما اختلط الأمر عليه.
قال زيد:
ـ فكرت فى هذا، ولدى شهادة، من جارة للرجل أيضا.
سأل معاذ:
ـ من؟
رد زيد:
ـ عاتكة.
قال ابن مسعود:
ـ شهادة فتى وأرملة.. ماذا تريد بنا يازيد..؟!
ضحكوا جميعا. قال زيد:
ـ أعلم أن ذلك لن يرضى يقينك.. فاحتطت للأمر، بشاهدة أخرى، رأت نهاية الواقعة، حيث جرى إمساك الجمل أمام دارها، واستطلعت الأمر هى وأهلها.. أم ورقة.
قال ابن مسعود:
ـ نعم الشاهدة.. لايجادلك أحد، إلا وتفوز زيد. نسمع الشاهدتين، فإذا اتفقتا مع كلام سمرة، يُستبعد هذا الرجل.
وافقوا جميعا، وطلبوا من زيد، أن يعلن اسم الشاهد التالى.

(٨)

قبل أن تسمع أم ورقة، أسئلة المترددات، على مجلسها، أعلنت أسماء

شهود كتابة بعض الآيات، وأسماء شهود، سمعوا بعض حفظة القرآن، يعرضون ماحفظوه على النبى.
وسألت، إذا كان لدى إحداهن، إعتراض، على أى إسم، أن تتقدم بذلك، الى مجلس زيد بن ثابت.
عند إسم امرأة، استوقفتها رفيدة، مستفسرة، وحين تيقنت، أنها من تعنيها فى نفسها، عزمت على التوجه الى مجلس زيد.
ذات مرة، كانوا عائدين من إحدى الغزوات، أصيبت بغلة بعرج، ورأت رفيدة امرأة تركبها. سألتها أن تترجل، حتى لاتزيد من ألم، وإصابة البغلة. سخرت المرأة منها:
ــ عرفنا أنك تطببين الآدميين، فهل تودين تطبيب البغال والحمير.
ردت رفيدة:
ــ إذا كنت لا أطبب البغلة، ألا أترفق بها. هل أدلك على أعرابى يعالجها..؟
أشاحت المرأة بوجهها عنها، وعبثا حاولت رفيدة إنزالها عن البغلة.
وافقتها أم ورقة على اعتراضها، فتلك التى لم ترفق بالحيوان، لن ترفق بالإنسان، فكيف نطمئن إلى شهادة امرأة مثلها..؟
استأذنت رفيدة فى الانصراف، لتلحق مجلس زيد. اصطحبت معها عنقودة. وكانت قد أحضرت أسماء الشهود التى أعلنتها أم ورقة. وسألتهن، إذا كانت عند إحداهن، أو عند أحد أزواجهن، آيات مكتوبة، أو محفوظة، أن يحضر الى مجلس زيد.
فى الطريق، عرجت رفيدة على بيتها، لتحضر بعض الآيات المكتوبة على الجلد. تناولتها منها عنقودة، وسرت أيما سرور.
سارتا قليلا، التقيتا عنقودة جارية عائشة. وكانت تحمل بعض الآيات المكتوبة على جريد النخيل.
عند باب زيد، التقى خارجة سَمُرة. لوح خارجة بما فى يده، من آيات مكتوبة على الجريد، ومشيرا الى القليل فى يد عنقودة. اغتاظت

عنقودة، لأن معه أكثر منها، وهى التى ظنت، انها ستحوز الرضا عند زيد، بما أخذته من رفيدة. طفرت الدموع من عينيها.
هتف سمرة:
ـ عنقودة
التفتت العنقودتان.
ارتبك سمرة، وتحير كيف يتوجه بالحديث، إلى إحداهما، دون أن يجرح شعور الأخرى.
أخرجته جارية عانشة من حيرته، قائلة:
ـ كان اسمى عنبة فأطلق عليّ أبو القاسم عنقودة.
لا يدرى سمرة، كيف تغلب على خجله، وأسرع قائلا وعيناه على الأخرى:
ـ أنت كرمة
ضحكن، واحمر وجه عنقودة، بينما استشاط خارجة غيظا. لم يعره سمرة التفاتا، وناول عنقودة ما فى يده من آيات مكتوبة على الجريد، وهو يقول:
ـ لكِ.
أشرقت عينا عنقودة بالفرحة. ولم يطاوعها صوتها، لكى تقول له: شكرا.
ولم تدر هل الصوت الذى صدر عنها، قد سمعه، أو فهمه، أم لا.
ووجدا نفسيهما، يتبادلان النظرات.
أحست عنقودة بعرفان طاغ للجميل، لأنه نصفها على خارجة، وبيض وجهها أمام زيد.
وفى نفس الوقت، أحست بشعور آخر، لاتدرى كنهه، نحو سمرة. شعور له حلاوة منقوع التمر. وخيل إليها أن هذا الشعور، كان كائنا فى نفسها، منذ فترة، ولكنها، لم تنتبه إليه إلا اللحظة. ولامت نفسها، لأن عينيها، تعلقتا بوجه سمرة. أنزلتها وقد أحست بالخجل من الحاضرين.
ويبدو أن سمرة، قد اعتراه الخجل أيضا، فاستأذن فى الانصراف، ولم يكن

يريد أن يفعل. ولكنه أدرك، وقد أعطاها مامعه، أنه لم تعد هناك ضرورة لبقائه. كما أنه لم يشأ أن يحدث، أو ينم، أى تصرف أمام زيد، يدل على أنه. أحضر. بعض مامعها من آيات مكتوبة.

أحس سمرة، بنشوة، تملأ عليه كيانه واستعاد إحساسه لحظة الألق، الذى رآه، فى عينيها، وهو يناولها الآيات. وود لو يبذل من أجلها أى شىء.. أى شىء.. يجعلها سعيدة.

انتزع قدميه من الأرض. بعد بضعة خطوات إلتفت. وجد عنقودة تتابعه. إلتقت عيونهما فى لحظة خاطفة، أحدثت رجفة. فى نفس كل منهما، جعلتهما يغيبان عما حولهما.

وكأنما مست الرجفة، نفوس الحضور، عم الصمت، حتى قطعته رفيدة، بطرقها على الباب.

[٩]

بان أن الشمس على وشك المغيب. لم يعد الحاضرون فى مجلس زيد، يميزون حروف الكتابة، خاصة، على عظام الأبعر والجريد. ودعك أحدهم عينيه، فكأنه أعطى إشارة لزيد، فصاح:

- سراجا ياأم خارجة.

تمطى الحاضرون. ودفعوا بظهورهم إلى الخلف، مسندين رؤوسهم إلى الحائط. يستمتعون بلحظات من الإسترخاء.

دخلت أم خارجة، بسراج، يتأرجح ضوؤه مع تأرجح يدها. وضعته فى فتحة أعلى الحائط. شيعوها بنظراتهم، وهى تغادر، ولسان حالهم يقول: أما كنت تتأخرين قليلا، حتى تعود إلى أذهاننا، نضارتها، وتسترد أبداننا عافيتها. خمن زيد مايدور فى دخائلهم، فقال:

- لابد مما ليس منه بد

همهم معاذ بن جبل:

ـ نعم.. نعم..
وسأل عبد الله بن مسعود:
ـ أين توقفنا..؟
قرب زيد رقعة من العظام، إلى عينيه الضيقتين، وقرأ:
ـ «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم»
تمتم أبي:
ـ رحم الله «مصعباً بن عمير».
سرحوا جميعا. تذكروا ماحدث يوم أُحد. تعجل المسلمون الفرح بالنصر، عندما رأوا أعداءهم ينسحبون منهزمين فى أول المعركة، فغادر الرماة مواقعهم أعلى الجبل، رغم تحذير أبى القاسم لهم. فإذا بفرسان قريش تغشاهم من أعلى جبل أحد، فتزيده جهامة على جهامته، وسوادا فوق سواده. وأحاطوا بالنبى، يريدون النيل منه.
دفع مصعب المقاتلين عن أبى القاسم، وجذبهم نحوه، مستفزا:
ـ أقبل ياابن القمينة.
فإذا بأحد الفوارس، يهوى بسيفه، على يمين مصعب، فيقطعها. فأخذ الراية بيسراه وهو يصيح، محمسا المحاربين:
«ومامحمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم»
وإذا بفارس آخر، يهوى بسيفه على يسراه، فيقطعها. حنا مصعب جسده على الراية، حتى لاتسقط، وضمها بعضديه إلى صدره، ومازال يصيح:
«ومامحمد إلا رسول..»
فإذا بفارس ثالث، يدفع رمحه، فى جسد مصعب. وهذا يأبى أن يسقط، خوفا أن يكون الطريق خاليا من المدافعين عن أبى القاسم.

نزف الجسد، وخارت قواه، وأخذ يتهاوى، رغم إرادة صاحبه. وظل لسانه يردد «ومامحمد..».

سقط الجسد، ولكن الكلمات كانت قد تغلغلت فى النفوس، ودفعت فيها الحمية. هبوا إلى النجدة، وخاب مهاجمو النبى.

وجاء القرآن بكلمات مصعب، بعد ذلك.

قطع زيد جو الشجن الذى سيطر على جلسائه، وقال:

ــ شهود هذه الآية كثيرون، ممن حضروا موقعة أحد.

قال ابن مسعود:

ــ نبحث عن شهود الإملاء، وليس شهود الواقعة، خاصة وقد أكمل القرآن الآية: «ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين..»

رد زيد:

ــ حقا ماتقول.. وعلى أية حال فشهود الإملاء كثيرون. فقد ذهب محبو مصعب إلى أبى القاسم، ليكتبوا و يحفظوا منه الآية بعد تمامها.

قال أبى:

ــ لم يبق إلا أن نعلن فى الناس، حتى نستوثق بشاهدين، ونسمع منهما.

قال معاذ:

ــ علينا بغيرها.

وضع زيد الرقعة على جنب، وتناول صحيفة من الورق، وقرأ:

ــ «واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى».

قال ابن مسعود:

ــ هذه جاءت على لسان عمر، قبل أن يأتى بها القرآن، فقد خاطب يوما أبا القاسم قائلا «لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلى».

قال أبى لزيد:

ــ هات ماعندك مما جاء على لسان عمر، وجاء به القرآن، لنفرغ منه.

قلب زيد فى الصحائف والجريد، أمسك بجريدة، وقرأ:

«عسى ربه ان طلقكن أن يبد له أزواجا خيرا منكن»
قال ابن مسعود:
ـ قالها عمر، حين رأى سماحة أبى القاسم، ولينه من نسائه، رغم شدة غيرتهن، وتحزبهن عليه.
وضع زيد مافى يده جانبا، وتناول جريدة أخرى، وقرأ:
ـ «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين»
قال ابن مسعود:
ـ عندما سمعها عمر، عقب قائلا: «فتبارك الله أحسن الخالقين»، فجاء القرآن بتعقيبه.
قال معاذ:
ـ لن نجد شاهدا خيرا ممن جاءت على لسانه
قال ابن مسعود:
ـ من جاءت على لسانهم، ومن حضروا المناسبة التى قيلت فيها الآيات، نستمع لهم لزيادة اليقين، ولكن علينا الالتزام بخطتنا، من سماع شهود الإملاء، أو شهود العرض.
قال أبى:
ـ ولكنه عمر، الذى قال فيه أبو القاسم: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»، وقال عنه ابنه: «مانزل بالناس أمر قط فقالوا وقال، إلا نزل القرآن على نحو ماقال عمر».
قال ابن مسعود:
ـ نزاهة عمر محل تقديرنا، ولكن لنا خطتنا، التى لانحيد عنها.
أوغل الليل، وبان أن زبالة السراج، تنفث نفثاتها الأخيرة. لعقت الزبالة الزيت من قاع الإناء مرسلة ضوءً واهنا، متراقصا، ومنذرة إياهم بطقطقة خفيفة، فأيقنوا بضرورة المغادرة، مراعاة لحقوق أبدانهم عليهم، قبل أن تنطفىء تماما.
قال زيد، وقد لحظ حالتهم، وإن لم يقِل عنهم تعبا:

ــ آية واحدة فقط.
أشار له أبي بيده، أن أسرع بها، ولسان حاله يقول: والا سقطت منكم نائما.
قرب زيد صحيفة من الجلد، من عينيه، وقرأ:
ــ «سبحانك هذا بهتان عظيم».
قال معاذ:
ــ جاءت على لسان سعد بن معاذ، على ماأذكر، قبل أن يجيء بها القرآن.
وافقه ابن مسعود:
ــ نعم.. عندما سمع ماقيل فى أمر عائشة، من اتهام، عده ظالما.
قال أبى، يريد أن يحسم الأمر، لينصرف:
ــ نستمع إلى عائشة
قال ابن مسعود:
ــ الزمن، والكبر، يعبثان بالذاكرة، فتقدم حرفاً أو تؤخر كلمة.
عاجله أبى:
ــ ولاغنى، عن سماع شهود الإملاء والكتابة.
رد ابن مسعود:
ــ أنار الله شيخوختك
تضاحك أبى، وتساءل:
ــ أنا أم أنت..؟!
علق زيد:
ــ لاتحزنا، كلنا فى الهم شيخوخة.
ضحكوا جميعا، ونهضوا، ودعهم زيد، ونادى سعيدا ليوصلهم. استبطأوا سعيداً، فانصرفوا وهم يتمتمون:
ــ لاعليك.. لاعليك أبا سعيد.
بعد أن انصرفوا، جاءه سعيد، يدعك عينيه. قال زيد:
ــ دائما بعد فوات الأوان.

رد سعيد:
ـ غلبنى النوم ياأبى.
غير زيد وجهة الحديث، وقال:
ـ من زمن، لم تحضر لى آيات مكتوبة.. لم تكاسلك..؟!
جاء صوت أم خارجة من الداخل:
ـ ليس تكاسلا، ولكن كِبْرًا
قال زيد فى دهشة، وقد أحس فجأة أن تعب الليلة يغادره:
ـ كبرا..؟!
جاءت أم خارجة، تطرح عنها أثر إغفاءة وقالت:
ـ عندما وجد خارجة وسمرة وعنقودة، يحضرون لك، وهم دونه سنا، اعتبر هذا لايليق به.
ضحك زيد وهو يقول:
ـ ولكنه لايكبرهم إلا بعامين أو ثلاثة.
ابتسم زيد وقد جال فى خاطره: لعله الإحساس المبكر بالرجولة. امتلأت عيناه بزهو، سرعان ماخبا، وهو يردد فى نفسه: ولكن الرجولة ليست هكذا.
ربت زيد على كتفى سعيد، ولما يزل يحدث نفسه: حسنا.. لنختبر مبلغ رجولتك يافتى.
قال زيد:
ـ غدا.. أدع ابن الخطاب إلى مجلسنا.
لم يجد سعيد مايرد به، سوى أن يتساءل:
ـ نعم ياأبى..؟!
ضحك زيد، وحدث نفسه: سمعتنى أيها الماكر، ولكنها الخشية من لقاء عمر بن الخطاب، وعلى أية حال من أنت حتى لاتخشاه. إن أهل المدينة جميعا، يخشون شدته وبأسه، ومنذ ولى قاضيا على المدينة، لم يذهب إليه أحد شاكيا، أو مقاضيا.
ربت زيد كتفى سعيد ثانية، وقال فى حنان:

ـ لاعليك.
بدا سعيد، كأنما يغالب شيئا فى داخله، وقال:
ـ سأذهب إليه
تأمله زيد مليا. أخبرته تعابير وجهه، أنه عانى كى يمتلك زمام نفسه. وحين غادر سعيد، لينام، دون أن ينتظر تعقيبه، أو تعليقه، أدرك زيد أنه حسم أمره.
سألته أم خارجة، إذا كان فى حاجة إلى شىء، قبل أن تنام. شكرها زيد وقال:
ـ سعيد رجل وابن أبيه حقا
قالت أم خارجة:
ـ بل ابن النوار
نظر زيد فى عينيها، تغالبان الوسن والنعاس. شيعته بظهرها.
أحس بعطف نحوها، وهو يرى جسدها، قد مال إلى البدانة، فبان أقصر مما هو فى الحقيقة. وشاب خطواتها، وهن الكبر والسهر. وود لو ينظر فى وجهها، وكأنه لايراه كل يوم، ليتحقق مما بقى، من ملاحة صبية، رآها سارحة فى المرعى، تحاول، شمس الصحراء القاسية، أن تصبغ وجهها الأبيض، دون جدوى، فقد ظل، مشعا بحمرة خفيفة، أضفت حسنا، إلى حسن أنفها الدقيق وشفتيها المضمومتين الرقيقتين. وأنبأته عيناها السودوان، المتحديتان، أنها تعرف أنه اختارها، ولكنها فى الوقت نفسه، تخبره أنها اختارته أيضا.
قال زيد بصوت خافت، وهو يتأهب للذهاب إلى الفراش:
ـ صدقتِ.

[١٠]

أملى زيد:
ـ الصراط..

تردد سمرة. رفع رأسه وسأل:
ــ بالصاد أم بالسين؟
رد زيد:
بالصاد
قال سمرة:
ــ سمعتها مرة بالسين.
قال زيد:
ــ هل تريد أن تتعلم أم تريد المجادلة..؟!
رد سمرة:
ــ وهل يتعارضان..؟!
ظن زيد، حين طلب منه سمرة، أن يتعلم القراءة والكتابة، أنه فعل ذلك، ليكون قريبا من عنقودة. فالآيات التى ينتهون من تحقيقها، ينسخونها، آملين أن يجمعوا الآيات كلها بين دفتى كتاب واحد، يستطيع أن يرجع إليه من يشاء، ليلتمس آية، أو ليعرف حكما فى الشرع، أو مبدأ فى العقيدة. وبات زيد مقتنعا الآن، أكثر من أى وقت مضى، بصواب مايفعلون.

ولما كان العمل فوق طاقة زيد، فقد استعان بعلى بن أبى طالب، وبابن عباس، فى نسخ الآيات. وخاصة تلك التى يمليها حفظة القرآن، من ذاكرتهم، حتى يعثرون على نسخة مكتوبة، فيضاهون الاثنتين معا. وحين شاهدت عنقودة ذلك، سألت زيدا أن تنسخ معهما فهى تجيد القراءة والكتابة.
وهاهو سمرة، يثبت لزيد، رغبة حقيقية فى التعلم، بأسئلته، ومجادلته.
وتساءل زيد فى نفسه: لابأس فى ذلك.. سواء كانت رغبته الدفينة، الاقتراب من عنقودة أم لا. أين هذا من خارجة الأحمق، الذى تنم كل أفعاله، على هواه لعنقودة، ولكنه بدلا من أن يحاول الاقتراب منها، يفتعل المشاجرات، ولايستقر فى مكان واحد معها فترة من الزمن.
لكم ود زيد أن يطلب منه خارجة أن يعلمه القراءة والكتابة. وحين ألمح

له زيد برغبته، انصرف خارجة عنه، واستمر فى مساعدة جار لهم يعمل بالتجارة. سلم زيد أمره لله، وهو يردد: ماحيلتى.. كلٌ ومايهوى.
أنبأه سمرة، أن أناسا، يطلبون منه، كتابة رسائل، إلى ذويهم، عند أطراف الدولة. تحرج سمرة فى البداية، أن يأخذ أجرا على ذلك، ولكنه بعد تفكر. وبعد أن كثر السائلون، لم يجد حرجا، أن يأخذ أجرا، يساعد به أباه. أما كتابة آيات من القرآن، لمن يسأله، فقد اعتزم ان تكون دون مقابل. حمد له زيد ذلك، وردد فى نفسه: أيها النبى. من كان يصدق على أيامك أن الكتابة قد تكون مهنة..؟!، يتكسب المرء من ورائها. لكم تغير الزمن، ولم يكد يمضى وقت طويل منذ رحل أبو القاسم.

تأمل زيد سمرة، وقد فاجأه السؤال. وقال فى نفسه: غلبتنى يافتى. لاتعارض بين العلم والمجادلة. فلماذا يكون هناك تعارض بين الحب والتعلم. بل لعل أحدهما يغذى الآخر. فوجود عنقودة بقربك يدفعك لسرعة التعلم، لتجاريها، ورغبتك فى التعلم تجعلك أكثر قربا منها. وهل أحسن للقربى من اقتراب الميول.. حقا يابنى، اذا أحببت أحدا، اقترب منه فى عمل، وليس فى عراك..!

قال سمرة:

ـ لم تجبنى ياعمى.

التفت إليه زيد، وقال:

ـ الأصل هى السين، ولكن الصحابة كتبوها بالصاد، وعدلوا عن السين، لتكون قراءة السين، وان خالفت الكتابة المرسومة، قد، أتت على الأصل فيستقيمان، ولو كتبت الصراط بالسين على الأصل، لفات ذلك، وعُدَت قراءة غير السين مخالفة للرسم والأصل.

قال سمرة:

ـ بالأمس أمليتنى «بسطة» بالسين

قال زيد:

ـ «بسطة» فى سورة البقرة تكتب بالسين لكون حرف البقرة كتب بالسين، أما «بصطه» فى سورة الاعراف فتكتب بالصاد، لأن الأعراف كتبت بحرف الصاد كما سبق أن شرحت لك.

صمت سمرة، وبانت على وجهه الحيرة. قال زيد:

ـ لم تستوعب ماقلته

رد سمرة:

ـ بلى.. ولكن أحتاج إلى وقت، حتى أتبينه جيدا

قال زيد:

ـ نعود إلى الكتابة.

ظل سمرة ساهما، فتساءل زيد:

ـ ماذا أيضا..؟

رد سمرة:

ـ شيء يصعب عليّ

قال زيد:

ـ ميسر بإذن الله

سأل سمرة:

ـ كيف أقرأ التاء أو الياء أو الباء ومانكتبه نبرات فقط. وكذا، كيف أعرف حرف الفاء من حرف القاف وليس فوق أحدهما مايدل عليه.

أكمل له زيد:

ـ وكذا، لايوجد مايدل على التسكين أو الرفع أو الكسر فوق أو تحت الحرف.

أومأ سمرة برأسه موافقا، فقال زيد:

ـ لذلك، طلبت منك أن تحفظ آيات من القرآن، ومتى حفظت الآيات، عن تلاوة جيدة، سهلت عليك القراءة، والكتابة.

ظل سمرة، متطلعا نحوه، ولم ينكب على الكتابة، فسأله زيد:

ـ ماذا يقلقك..؟

قال سمرة:
ــ القراءات مختلفة.
قال زيد:
ــ عليك أن تتعلم القراءات كلها، ثم تختار القراءة التى أجمع عليها أغلب الناس.
سأل سمرة:
ــ ألا يختلف المعنى من قراءة إلى أخرى..؟!
رد زيد:
ــ لن يختلف المعنى. جاء فى القرآن «واذا رأيت ثم رأيت نعيما ومُلكا كبيرا» في قراءة بضم الميم واسكان اللام. وفى قراءة بفتح الميم وكسر اللام «مَلِكاً كبيرا». المعنى مغاير ولكنه ليس متناقضا. ألا تشتمل مُلكا بالضم فى معناها على مَلِكاً بالفتح. واذا أخذنا بالمعنى الآخر مَلِكاً بالفتح. هل يتعارض مع معنى مُلكا بالضم..؟!
نظر سمرة فى الصحيفة الجلدية، أمامه، فأدرك زيد أنه بدأ يتفهم، فانبسطت أساريره.
لكن سَمُرة رفع رأسه وسأل:
ــ وأنا أستعيد الآيات، لأرى مبلغ حفظى، إذا توقفت عند كلمة، لاح لى معنى، واذا وصلت الكلمة بأخرى وتوقفت لاح لى معنى مغاير.
ضحك زيد، ومال برأسه إلى الخلف. رمق سمرة بعينين ضاحكتين، وقال:
ــ لن تستوعب كل شيء مرة واحدة.
خجل سمرة، وتطلع إلى صحيفته. رفع رأسه فجأة. وقد صكت سمعه ضحكة عنقودة.
التفت زيد مندهشا، وقال:
ــ أنت هنا..؟!
ردت عنقودة:
ــ كتبت ماكلفتنى به.. هل تراجعه..؟

وشى تعبير وجه سمرة، أن ضحكة عنقودة قد ضايقته. كظم غيظه، وتطلع إلى زيد بعينين قلقتين. قال زيد:

ـ هات ماعندك.

توقع زيد أن يشكو عنقودة، لضحكها سخرية منه، ولكن سمرة سأل:

ـ لماذا لاتكون قراءة واحدة..؟!

زفر زيد فى راحة، لأنه تجاهل ضحكة عنقودة، فلو لم يفعل، ربما تعذر عليه، أو على الأقل استغرق منه وقتا، وقف تراشق السهام بينهما. رد زيد:

ـ القراءات متلاقية، وإحدى القراءات، توضح معنى القراءة الأخرى، وأحيانا تفسرها.

سألت عنقودة:

ـ وماذا عن الكتب الأخرى..؟!

رد زيد:

ـ جاءت جميعها على وجه واحد.. أما تنوع القراءات فإنه مفيد، كل قراءة تساعد فى الترجيح والتعليل. جاء فى القرآن «يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرْجُلَكُمْ الى الكعبين». اذا قرأت «وأرجلكم» بالرفع والنصب فسرها بعضهم أن هذا يعنى غسل الرجل، واذا قرأتها بالخفض، فسرها بعضهم أن هذا يعنى الاكتفاء بالمسح على الخف. وفى الحالين اللفظ واحد لم يتغير.

صمت سمرة، يفكر فيما سمعه، وأرادت عنقودة أن توضح له أكثر، فقالت:

ـ جاء فى القرآن «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» اذا قُرئت «أنفسكم» بفتح الفاء، دلت على أن الرسول من أعلى الناس نسبا وخلقا ومكانة. وإذا قُرئت «أنفسكم» بضم الفاء دلت على أن الرسول من العرب أنفسهم، وليس غريبا عنهم.

قال زيد:

ـ بوركتِ عنقودة.

وتطلع إلى سمرة، فدلت إشراقة جبينه، أنه بدأ يتبين، وان شاب أديم عينيه عدم استقرار طفيف. قال زيد:

ـ تستطيع أن تضم القراءتين فيكون المعنى، أن الرسول رغم أنه من أعلى العرب منزلة، ومن الذين يتسامون عن سفاسف الأمور، إلا أنه منكم، لاتختلف مشاعره عن مشاعركم، ويحس بما تحسونه.

أومأ سمرة برأسه، وقال:

ـ وضحت الرؤية.

أشرقت عينا زيد بالألق، وأحس براحة، وهو يرى أثر الكلمات، على وجه سمرة.

وتطلعت عنقودة إلى سمرة، لكنه تجاهل نظراتها. غامت نفس عنقودة، وودت لو لم تفلت منها الضحكة الساخرة. وتحيرت.. ماذا تفعل لتذيب الكدر من نفسه

هدأ فكر سمرة وقد وضحت له حكمة تعدد القراءات، خاصة بعد كلمات عنقودة. وأحس بجسده خفيفا، يكاد يطير. التفت الى عنقودة، وابتسم. زالت الغيمة من نفسها وقد أدركت أنه سُرى عنه، أشرق وجهها بالفرح، واتسعت ابتسامتها.

هم سمرة بالكلام. أوقفه زيد بإشارة من يده، وقال:

ـ ولتفقيه الناس، وشرح القراءات، احتجزت مع طائفة من الصحابة، عن الخروج لميادين الفتح. عثمان وأبى وابن مسعود وعلى بن أبى طالب، وابو الدرداء.

هل عَنّ لك شيء لم أرد عليه..؟!

هز سمرة رأسه نفيا، فالتفت زيد إلى عنقودة، وقال:

ـ هاتِ ماعندك.

قبل أن تفعل، رفع سمرة رأسه وقال:

ـ لكن ياعمى..
قال زيد فى نفسه: بدأت المزاحمة. ردت عنقودة:
ـ نؤجل المراجعة..؟!
حمد زيد لها ذلك، فقد بدأ يحس بالتعب. إلا أنه تساءل: لماذا حضرت عنقودة اذن، اذا كانت غير راغبة فى المراجعة. هل بدا لها أن سمرة استأثر باهتمامه، فظنت أنه بدأ يهملها، أم أن حضورها رسالة موجهة إلى سمرة، أنها هنا، وأنها فاهمة، وأنها تستطيع المساعدة.
قال زيد موجها حديثه إليهما:
ـ غدا نستكمل.
لمح زيد شيئا من الرهق على وجه سمرة، فرجح أن يكون من عناء الدرس، فقال مداعبا، ليخفف عنه:
ـ هل تبين لك فيما قلته الخيط الأبيض من الخيط الأسود
رد سمرة:
ـ أى خيط..؟!
ضحكت عنقودة. جاراها زيد، وقد أيقن سبب استغلاق المعنى على الفتى، فلام نفسه لأنه استجاب لكثرة أسئلته، وأطال الدرس. قالت عنقودة:
ـ لايقصد أبى ذلك:
تطلع إليها سمرة، وقد احمر وجهه خجلا. قالت عنقودة:
ـ يقصد هل تبين لك الصواب من الخطأ.
نظر سمرة الى زيد مستطلعا، فقال:
ـ أنت تعب يابنى فلا تبتئس
قالها زيد، وأفلتت منه ضحكة، فاشتد احمرار وجه سمرة، وأحس بالغيظ.
قال زيد:
ـ لست أضحك سخرية منك، ولكنى تذكرت شيئا.

ولم يجد بدا من رواية ماأضحكه، ليسرى عنه، وحتى لايتيح الفرصة لاعتقاد، قد يتمدد داخله، ويؤذيه، أن عنقودة فهمت عنه.

روى زيد:

ــ لم يفهم عدى بن حاتم ماجاء فى القرآن «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» فأخذ عقالا أبيض وآخر أسود، فلما كان بعض الليل، نظر إليهما، فلم يستبينا. فلما أصبح سأل أبا القاسم، فأخبره أن المقصود بياض النهار وسواد الليل.

[١١]

ــ كرمتى.

التفتت عنقودة، وقد احمرت وجنتاها.

خطا سمرة الى داخل الحجرة، وقال:

ــ الوصل اليوم.

ردت عنقودة:

ــ حين يحضر أبى زيد.

جلس سمرة، غير بعيد عنها، ولما تستقر نظراته فى مكان. وحين أراد الكلام، هرب صوته منه، وقال بعد جهد:

ــ اريد أن أسر لكِ بشىء.

أسرعت دقات قلب عنقودة. ولم تستطع أن ترفع عينيها إليه. لحظها سمرة بسرعة، وقال بصوت خفيض، عانى ليجعله مسموعا:

ــ أنا..

رفعت عنقودة عينيها اليه. رمقها بسرعة، وقد احمر وجهه، وأحس أن عليه أن يوضح لها مايريده. هذب زوره بإحم إحم الثانية منحوتة، ممدودة. قال وقد اخشوشن صوته فجأة، وان كان لايخلو من شروخ:

ـ سأسأل عمى زيد أن نتزوج.
اهتز عود البوص فى يد عنقودة. وضعته أمامها على الصحيفة الجلدية. فانزلق الى الأرض. مدت إحدى يديها فى فجوة فى الجدار. بها دواة وأقلام من البوص والغاب، ومدية صغيرة. تناولت المدية. والتقطت القلم وانهمكت فى بريه. هذب سمرة زوره ثانية. وقال:
ـ مارأيك..؟!
نطقها. وأرسل زفيرا طويلا. واعتدل فى جلسته.
لكن عنقودة، وكأنها لم تسمعه، ظلت تعمل بالمدية فى القلم.
قال سمرة:
ـ كفى.. ستقضين عليه..!
وضعت عنقودة المدية فى الفجوة. وتشاغلت بالقلم بين أصابعها. عربد القلق فى نفس سمرة وعجب من صمتها. فقال يشجعها على الكلام:
ـ طمعت أن تظلنى أغصان كرمتك.
وتطلع إلى عينيها، فرمشت خفرا، واضطربت نظراتها. وحين عاود النظر فى عينيها، نشعتا بابتسامة حيية. رقص قلبه وقال:
ـ شجعنى على هذا الطلب، ماأجده من راحة، حين ألقاك.
ودت عنقودة أن تجيبه: وأنا أيضا. لكن الخجل عَقَل لسانها. فتظاهرت. بتجربة سن القلم فى رقعة جلدية مهملة.
دخل زيد. جلس وسأل:
ـ هل نسختما ماكلفتكما به.
تلاقت عيون عنقودة وسمرة. ابتسما، وتلعثما فى الرد. قال زيد:
ـ لابأس.. أمامنا النهار بطوله.. ولننته أولا من درس الوصل
قلب فى عدة صحائف وصاح:
ـ عنقودة
وازاء صمتها، وحيرتها، التفت زيد إلى سمرة وقال:

ـ .. هات أنت آية.

ولدهشة زيد، لم يجده أحسن حالا منها، فقال:

ـ ألم تفطرا..؟!.. استمعا إليّ جيدا «أمن يمشى سويا»

انتبهت عنقودة، فجأة، وقالت:

ـ إذا فصلنا أم عن من، أصبحت أم بمعنى بل.

عقب زيد:

ـ جميل.. أما اذا وصلناها «أمن» كانت بمعنى الذى.. ها.. معنا ياسمرة.

ولما لم يرد، ظنه فى حاجة إلى إيضاح أكثر فقال:

ـ «أم من يكون عليهم وكيلا» .. هنا أم واضحة، وتفيد معنى بل.

هز سمرة رأسه متفهما. وحين لحظ زيد شرود نظراته، ظنه لم يستوعب الدرس، لأنه جديد عليه. وكاد أن يطلب من عنقودة أن تأتيه بآية أخرى، فوجدها شاردة، وتبذل جهدا لتوهمه أنها منتبهة. عجب فى نفسه لحالهما اليوم، وقال:

ـ «ومايعلم تأويله إلا الله والراسخون». اذا وقفنا فى القراءة عند «الله»، كان المعنى أنه لايعلم التأويل إلا الله فقط، أما اذا وصلنا القراءة، ووقفنا عند «والراسخون»، كان المعنى أن الله وأولى العلم والإيمان، يعلمون جميعا تفسير الآيات.

رفع سمرة رأسه وسأل:

ـ أى القراءتين أرجح..؟

تأمله زيد، وقد انشرح صدره، لأنه انتبه إليه، وقال:

ـ أغلب المفسرين يميل إلى الفصل.

التفت زيد إلى عنقودة، لعلها تركز معه. ولزيادة فى الاستيعاب، قال:

ـ «واذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا».

إذا وقفنا فى القراءة عند «تقصروا» كانت صلاة القصر جائزة فى حالة

الترحال، حتى وان لم نشعر بالخوف. أما اذا وصلنا القراءة، ووقفنا عند «خفتم» أصبحت صلاة القصر واجبة فى حالة شعونا بالخوف فقط.
سألت عنقودة:
ـ إلى أى القراءتين نميل..؟!
أحس زيد أن منافسة بينهما مشتعلة، فكما سأل سمرة، تسأل هى. قال:
ـ يرى أغلب الفقهاء أن نُيسر ولانعسر، فى الآية الأولى، التزمنا الحيطة، وفضلنا القراءة بالفصل، حتى اذا ماجتهدنا، وفسرنا، ولم نصب الحقيقة، فلا جناح علينا، لأن من يعلم الحقيقة التى لاتقبل أى شك هو الله، وهنا التيسير أن تكون القراءة بالفصل أيضا، فتكون صلاة القصر جائزة فى الترحال سواء شعرنا بخوف أم لا، أليس هذا أيسر علينا وعلى الناس..؟!
ردد سمرة فى نفسه: أى أن الوصل صعب..!
نهضت عنقودة، لتحضر صحائف جلدية من الداخل، وأخذت معها الدواة لتملأها.
تفكر سمرة: الوقت سانح الآن لأتحدث إلى زيد، كما انتويت قبلا. ولكن صمت عنقودة يحيرنى، هل توافقنى أم لا..؟! وتمثلت فى مخيلته ابتساماتها الحيية، واحمرار خديها، لام نفسه لعدم الفهم، منعها الحياء، وربما المفاجأة، من الرد، ألم تنبنك كل خلجة فى جسدها، أنها سعيدة بما قلته. حقا أحسست بذلك، ولكن، ماذا لو كان إحساسى غير صحيح..؟!.. وهل يكذب المحب إحساسه..؟!
لحظ زيد تطلع سمرة اليه، وتردده فى الكلام، فقال:
ـ ماذا عندك..؟
أخذ سَمُرة بالسؤال، لم يكن قد استعد للكلام، فوجىء بنفسه يقول:
ـ أود عمى..
واضطربت نظراته، قال زيد:
ـ تود ماذا..؟
اندفع سمرة:

ـ أن أكمل نصف دينى.
صمت زيد. لم يكن ميله إلى عنقودة مفاجأة له، فقد لحظه من قبل. ولكن المفاجأة. أن يطلب الزواج الآن.
لم يدر زيد بالضبط بماذا يجيب. لم يسبق أن أعد نفسه لهذا الاحتمال. رغم معرفته أنه آت. وأخذ يراجع نفسه: كيف توهمت أنهما مازلا صغيرين، وهما يذهبان ويجيئان فى وضحة الشمس، ويختلفان إلى مجالس الحديث والفقه. لاشك أن ذلك أنضجهما دون أن نشعر.
قال زيد:
ـ أنت فتى طيب
قال سمرة بلهفة:
ـ موافق ياعمى
لم يشأ زيد أن يكسر خاطره، أو يجرح شعوره، فقال:
ـ ألا نفرغ مما نحن فيه أولا..؟!
رد سمرة:
ـ جمع القرآن أوشك على النهاية.
قال زيد:
ـ والنسخ.. ألن يستغرق وقتا..؟!
صمت سمرة، وغشيه حزن مبهم، وقد أدرك أن زيداً لايود البت فى الأمر الآن. لحظ زيد وجومه فقال مادأ فى حبل الأمل:
ـ كل شيء بأوانه.

[١٢]

فى جانب من باحة الدار، أعدت عنقودة حفرة صغيرة، ألقت فيها بعض سعف النخيل الجاف. وثبتت بعرض الحفرة، سيخين قصيرين من الحديد. وضعت فوقهما إناءً خاليا. فرشت قطعة من القماش على الأرض، وضعت

فوقها قطعة من الشاش، وألقت عليها قليلا من السخام، كانت قد جففته فى الشمس من قبل. فركته بيديها ونخلته. ألقت النخالة فى الإناء، وأضافت بعضا من الماء. غابت داخل الدار، أحضرت قليلا من الملح والصمغ، وأضافتها لما فى الإناء.

وقفت أم خارجة على باب حجرتها، المطلة على الباحة. رأت عنقودة جالسة، كمن أعيتها الحيلة. قالت:

ـ ألن تشعلى النار..؟!

ردت عنقودة:

ـ ينقصنى العفص والعسل.

انسحبت أم خارجة داخل حجرتها. سمعت عنقودة طرقا على باب الدار. دق قلبها سريعا. توقعت أن يكون الطارق سمرة. كان قد أخبرها، أنه كلم رجلا عنده شجرة بلوط. وأكد لها أنها حملت هذا العام عفصا، لأنها حملت فى العام الماضى بلوطا، كعادتها عاما بعد عام. وحين علم الرجل، أنهم يريدون العفص لاستخدامه فى صناعة المداد، لكتابة آيات القرآن على الرق، تنازل عن ثمنه، وتمنى لهم التوفيق.

فتحت الباب، وجدت عنقودة جارية عانشة أمامها. أُخذت قليلا. تبسمت الزائرة، وقالت:

ـ ألن تدخلينى..؟

استردت عنقودة نفسها بسرعة، وقالت، مفسحة لها الطريق:

ـ على الرحب.. وبكل سرور

تناولت منها إناءً أحضرته. رفعت غطاءه، وقالت:

ـ هذا كثير

ردت الجارية:

ـ حين علمت سيدتى، فيما تريدونه، قامت من فورها بإحضاره. وقد تصعبت وهى تتذكر أيام أبى القاسم.

كان يحب عسل النحل، ويتناول منه، فى رواحه وغدوه.
صبت عنقودة قليلا من العسل فى إنائها. انحنت الجارية، لتشعل النار فى السعف. أوقفتها عنقودة بإشارة من يدها، وقالت:
ــ لم يحضر سمرة العفص بعد.
وحتى يحضر سمرة، جلستا تتحدثان. واذ استغيبتاه، اقترحت عنقودة على الجارية، ألا تضيعان الوقت فى الكلام، وأن تجهزا رقا للكتابة.
نهضت عنقودة، وجلبت نوعا خاصا من الجلد، كانت قد رشته بالملح، منذ عدة أيام ليجف.
ونهضت معها الجارية، وغسلتاه بالماء. نشرتاه فى الشمس ليجف. أحضرت عنقودة علبة، بها مادة خاصة، لتضعها على الرق، تجعل سطحه مصقولا، وصالحا للكتابة عليه.
أخذت الجارية العلبة، فاستمهلتها عنقودة، حتى تفعل الشمس فعلها. فيجف الجلد من جهة، ومن جهة أخرى، تغادره تلك الرائحة الكريهة، التى تظل عالقة به، قبل صقله.
تشممت الجارية يديها، وتأففت. أحضرت عنقودة ماء، وصبت لتغسل يديها، وحين تناولت الجارية إناء الماء، لتصب عليها، أرجأتها عنقودة حتى تنتهيا.
سمعا طرقا على الباب. تسارع الوجيب فى صدر عنقودة. أشارت إلى ضيفتها لتفتح.
وجدت سمرة، وقد أحضر العفص. شكرته، لكنه لم ينصرف. تطلعت إلى عنقودة، فأشارت إلى ثوبها، وأنفها، تبسمت الجارية، وقالت:
ــ الكرمة.. ليست ظليلة اليوم.
فهم سمرة، ماتعنيه. تردد قليلا. أخرج من جيبه زجاجة من العطر، ناولها إياها، وانصرف. احمرت وجنتا عنقودة. وتساءلت فى نفسها: هل كانت الرائحة عالقة بى فى الأيام الأخيرة، رغم اغتسالى، وتغيير ملابسى،

خاصة قبل لقائه فى الدرس. أم رجح هو ماأقوم به. وتوقع أن تعلق بى تلك الرائحة، فأحضر هديته. أم كان مارا بدكان أخى سعيد، فاشترى منه الزجاجة. زلفى إليه، وتودداً إلىّ. أيا ماكان الأمر. فلم تستطع أن تمنع نفسها من الشعور بالامتنان.
أشعلت الجارية النار. قلبت عنقودة المزيج. ثقل القوام بعض الشىء. دست عنقودة عودا من الجريد فى الإناء، وخطت به فوق قطعة مهملة من الرق. تأملت اللون المائل إلى السواد، وسألت:
ــ مناسب..؟
ردت الجارية:
ــ يُهيأ لى.
خطت عنقودة ثانية. باعدت بين الرق وعينيها، وسألت:
ــ نغمقه قليلا..؟
ولم تنتظر جوابا، وضعت قليلا من السخام فى الإناء، وقلبت. غمست العود، ورفعته، متأملة لون المداد، وتمتمت:
ــ يكفى هذا.
حملت الإناء بعيدا عن النار. استأذنت الجارية فى الانصراف، حتى لاتستغيبها سيدتها، فقالت عنقودة:
ــ ليس قبل أن تتعطرى.
شطفت لها يديها بالماء ثانية. نقطت لها قطرات من العطر فى راحتى يديها. فركت الجارية يديها، ومررتهما على جبينها ووجنتيها. وفجأة عضت شفتها السفلى وقالت:
ــ ماذا عسى سيدتى تظن بى..؟!
أوصلتها عنقودة إلى الباب، وقد عبقت أنفها رائحتها الذكية، وقالت:
ــ غدا.. يكرمك الله، بمن ترتاح إليه نفسك.
اغتسلت عنقودة. غيرت ثوبها. وأسفت لأنها صدت سمرة عن لقائها.

هونت الأمر على نفسها، وتساءلت: كيف كنت أقابله فى حالتى تلك. أتراه.. يعذر ويقدر، أم سيرانى قاسية معه. ربما كان من الأفضل أن ألقاه. ولكن.. لا.. لم أكن أستطيع.. لم أكن أستطيع.

دق الباب، فدق قلب عنقودة بعنف. ظنت سمرة عاد. ليساعدها، وقد انتظر غير بعيد، حتى لمح الجارية تغادرها. فتحت الباب فوجدت الجارية أمامها. لم تستطع النطق، فقالت الجارية:

ـ أخذنا العمل، فسهوت عن رسالة من سيدتى، لسيدى زيد.

قادتها إلى مجلس زيد. أقرأته الجارية سلام سيدتها، وتمنياتها له بالسداد فيما يقوم به، وقالت:

ـ تخبرك سيدتى عائشة: نزلت آية الرجم ورضعات الكبير عشر، وكانت فى ورقة تحت السرير، فلما شكا أبو القاسم مرضا، تشاغلنا بأمره، فأكلتها شاة عندنا، فتوفى أبو القاسم وهى مما يقرأ فى القرآن.

صرف زيد الجارية، وطلب منها أن تبلغ سيدتها شكره، والتفت الى جليسيه وقال:

ـ مارأيكما..؟!

سأل أبى بدوره:

ـ ماذا عندنا..

تناول زيد رقا من الجلد، وقرأ:

ـ «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة..».

ردد أبى:

ـ «وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم».. الآية التى بين أيدينا لاتحدد الرضيع صغيرا كان أم كبيرا

قال معاذ:

ـ ولكن عائشة تقول، أن النص الذى فقد منها ينص على رضاع الكبير.

وكان فيها عدد الرضعات (كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات، فنسخن بخمس معلومات) وهى تحفظها، وتعمل بها، وأمرت أختها أم كلثوم، وبنات أخيها بالعمل بها.

قال أبى:

ـ وعائشة قالت أن سورة الأحزاب، كانت تقرأ فى زمن أبى القاسم حتى منتى آية

ثم سأل:

ـ وماذا لدينا من سورة الأحزاب اليوم..؟!

رد زيد:

ـ حوالى سبعين، أو إحدى وسبعين آية.

قال أبى:

ـ والذى أحلف به، لقد كانت أيام أبى القاسم لتعادل البقرة أو تزيد عليها..

قال معاذ:

ـ لقد أُلغى قرآن كثير، ألا تذكرون أن رجلا قام فى جوف الليل يريد أن يفتح سورة، كان قد وعاها فلم يقدر على شىء منها الا باسم الله الرحمن الرحيم، فأتى النبى حين أصبح، وجاء آخرون، وعلموا بشأن هذه السورة، وسألوا أبا القاسم عنها، فسكت ساعة لايرجع إليهم شيئا ثم قال، نسخت البارحة.

قال زيد:

ـ اذن لن نعتمد إلا النص الذى وصل إلينا مكتوبا، بخصوص آية الرضاعة.

سأل معاذ:

ـ وماذا بشأن آية الرجم، وهى ليست مكتوبة، وحتى الرواة، غير متفقين على نص بعينه. فمرة: «الشيخ والشيخة إذا زنيا، فارجموهما البتة» ومرة «اذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة، نكالا من الله والله

عزيز حكيم» ومرة «الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة».

قال زيد:

— لن نكتبها، حيث لايوجد نص مكتوب كما أن مايروى مُختلف عليه.

قال أبى:

— لقد استأذنت أبا القاسم فى كتابة هذة الآية. وكان عمر بن الخطاب حاضرا، فدفعنى عمر فى صدرى وقال: تستقرنه آية الرجم وهم يتسافدون تسافد الحُمُر.

سأل معاذ:

— وماذا كان رد أبى القاسم

قال أبى:

— لم يعلق

قال زيد:

— لو أرادها أن تكتب، لما سكت على اعتراض عمر.

قال معاذ:

— هلم بنا نأخذ رأى ابن مسعود، ونسأله سبب تخلفه، عن جلستنا اليوم.

[١٣]

اختبر سمرة أعوادا من الجريد والغاب. انتقى منها ماصلب عوده. وبمدية أخذ يبريها. وفوق قطعة صلبة من الحجر، هذب أسنانها. وكلما انتهى من قلم وضعه فى مقلمة أمامه..

وبينما يتخيل تعبير السرور على وجه زيد، حين يرى ماعمله، ألحت

عليه فكرة، أن يكون له دكان يبيع فيه أدوات الكتابة، وأن يكتب الرسائل وآيات من القرآن، لمن يطلبها. وفكر أن يصنع نوعا من الورق، رأى عنقودة تصنعه، أرخص سعرا، وأيسر حملا. قماش حريرى، تسقيه بالصمغ، وبعد ذلك تصقله. والحبر المستخدم فى الكتابة عليه، أرخص من حبر الجلود، وصناعته سهلة، يكفى قليل من السناج والماء، ولابأس بقليل من الصمغ.

اعتزم أن يناقش الأمر مع عنقودة. فهى تستطيع مساعدته، فى تصنيع الورق والحبر، وفى الكتابة. وغلبه الأسى حين تذكر، كيف امتنعت عن لقائه، ولم يستطع أن يؤكد السبب. هل خشيت أن يدفعها، للتعجيل بالارتباط، وهى فيما يلمس، لاتود الشروع فى شىء، قبل الانتهاء من جمع القرآن. أم تراها خجلت أن تفضح حركاتها، وتعبيرات وجهها، مكنون عاطفتها، أمام الجارية عنقودة.

أم تراها، احتاطت، مخافة أن تشى كلماتى، بحقيقة شعورى نحوها، وهى لاتريده أن يكون مضغة فى الأفواه، خاصة، وشىء لم يتقرر بعد.

لعلها على صواب. ولكننى كنت أود الحديث معها عن فكرتى. لألمس بوضوح رغبتها فى مساعدتى.

وهل الفكرة قابلة للتنفيذ، وإذا مافشلت، هل يصبح ذلك نادرة تروى..؟!

ولكن، لا.. ما المانع أن أفتح دكانا لأدوات الكتابة..؟!

حقا.. لم يسبقنى أحد الى ذلك، ترى.. ماذا سيكون رأى العم زيد..؟!

لعل رؤيته، لما صنعته من أقلام، تجعله فى صفى.

قام سمرة، أحضر كيسا من القماش، وضع فيه المقلمة والأقلام. وتناول داوتين، إحداهما خشبية، والأخرى من الفخار. تردد.. أيهما يأخذها معه. استقر رأيه على الخشبية، فربما كانت أحفظ للمداد من الأخرى، التى لم يرتح لشكلها، ولملمسها الناعم، فقد تنزلق من يده، ويفسد، ماقد يتصادف، وتقع فوقه.

وضع فى الدواة بعضا من الحبر. بعد أن اختبره، واطمأن، إلى أنه يترك علامات مقروءة، فوق ورق المهارق الذى صنعه من الحرير. تناول مهرقا، جففه تحت أشعة الشمس، وتأكد من ثبات الحبر. حينئذ وضع بعضا من الورق فى الكيس.

آه.. كدت أنسى. تناول خرقة من الكتان، ليفرشها تحت الأقلام. وأخذ ممسحة، صنعتها له عنقودة من قطع الحرير، ليمسح بها الأقلام بعد الكتابة، حتى لايجف الحبر عليها فتفسد.

تحرق شوقا لملاقاة زيد. وأخذ يتخيل تعبير وجهه، حين يرى ماصنعه. رتب الكلمات، التى سيقولها له، ليذكره برغبته فى الارتباط بعنقودة. وتوقع سؤاله، عن كيفية اعاشتها بعد أن يستقل عن أبويه.

أتراه.. يوافق على دكانى..؟!

تحسس كيسه، وتساءل: هل يقبل الناس على هذه البضاعة..؟!

لايستطيع أن يقطع برأى، قبل أن يجرب الأمر. لقد أصاب بعض النجاح، حين كتب للناس رسائل الى ذويهم على أطراف الدولة، ولكن الأمر قد يختلف، حين يكون عملا دائما.. ماذا لو قال له العم زيد، انتظر حتى تجرب. هل يستطيع أن يصبر.

لايدرى ماذا أصابه، فهو يود أن يشاهد عنقودة دوما، وأن يتحدث معها، ولم تعد تكفيه مدة الدرس، أو المدة التى يتواجدان فيها، معا، للنسخ، أو لتحضير الرق للكتابة.

حمل سَمُرة الكيس، وخرج. وطوال الطريق، أخذ يمنى نفسه، أن يكون زيد فى مزاج مواتٍ، يسمح له بالتبسط فى الحديث، وألا يكون عنده زوار، حتى ينطلق لسانه.

تطلع إلى السماء، وحين وجد الشمس، هينة، ولم تتعامد بعد، قدر، أن الوقت مناسب. وصح ماتوقعه.

وجد زيدا يراجع مالديه، من صحائف. وحين رأى الكيس، هش له مازحا:

ــ جئت بزادك، مشفقا علينا من إطعامك.
أخرج سمرة أدواته، ولحظ نظرة الإعجاب، فى عينى زيد، وهو يمر بأصابعه على أسنان الاقلام، ويتأمل المهارق. ويتمتم:
ــ زاد رائع..
تفاءل سمرة، وهدأ وجيب صدره قليلا. استجمع شجاعته، وقال:
ــ أريد..
ــ نعم..
ــ أن يكون لى دكان
قالها، وأخذ شهيقا عميقا. تأمله زيد، وقال:
ــ هلا تريثت..؟!
قال سمرة:
ــ أوشكنا على جمع القرآن.
وأخذ يشرح فكرته. لحظ وهو يبسط كلماته، دهشة زيد، ومحاولته استيعاب الأمر.
وحين انتهى سمرة، ولم يعلق زيد، أحس بجسده ينزلق إلى قاع بئر خالية.
وفى محاولة، ليضع يده على حافة البئر، سأل:
ــ ماذا ترى ياعمى..؟
رفع زيد ناظريه إليه، وقال:
ــ شىء غير مسبوق
قال سمرة:
ــ لكل شىء بداية
قال زيد:
ــ لماذا لاتجرب فى تجارة مضمونة. شارك سعيدا تجارة العطور، أو قف مع خارجة فى دكان القماش. واذا لم يعجبك هذا، وذاك، فلتجرب فى دكان لبيع التمر، أو الحبوب.

أحس سمرة بالخذلان، فأفلتت حافة البنر من يده. قال:
ــ هلا أعفيتنى من الدرس اليوم..؟!
قبل أن يسمح له بالانصراف، راجع معه الآيات الناقصة، ومابلغهم بشأنها، فمن يملكون مخطوطات، متناثرون فى الحيرة وعند أطراف الجزيرة العربية ناحية الشام.
عرض سمرة، بحماس مفاجىء، أن يذهب إلى الحيرة.
وخرج، وهو يقلب أوجه الفكر. عجب من نفسه، لتحمسه للسفر، أتراني وجدتها فرصة للهرب، من مشروعى، ومن عنقودة، ومما يؤرقنى. أم هى رغبة دفينة لدى للسفر والرؤية. وهون الأمر على نفسه.. إن وافق زيد على السفر، فهى رحلة مفيدة أرى فيها جديدا، وأعود بعدها لإتمام ماأريده. وأحس باللوم تجاه نفسه.. كان الأوفق، بدلا من تسرعى، بإبداء الرغبة فى السفر، أن أشرح فكرتى جيدا. فلاشك أننى لم أعرضها كما أشعر بها. أنواع التجارة، التى عرضها على جيدة، ومربحة، ولكنى لم أتصور نفسى تاجرا من هذا النوع. لا.. ليس هذا بالتعبير الذى أريده.. ماأريده.. ها.. أكاد أمسك بما أريد أن أعبر عنه.. ها.. بالضبط.. شعورى.. هو.. أننى لن أحس بالسعادة إذا مارست هذا النوع من التجارة. لا.. ليس هكذا بالضبط.. نعم.. هاهى تواتينى.. نعم لن أجد نفسى مقبلا، أو نشطا فى هذه التجارة.. هذا أقرب لما أريد التعبير عنه..
أحس برضا وأنا أصنع أدوات الكتابة.. وأحس بفرحة داخلى حين أكتب لأحد رسالة، أو آية.. كيف أنقل إليك ياعمى زيد، إحساسى هذا.. وإحساسى بما يغمرنى، وأنا اكتب سلام أم لولدها المحارب، أو أنقل أشواق زوجة لزوجها فى بلدة بعيدة..
أقسم لك ياعمى، أنى ساعتها، لم تهمنى النقود أبدا، ومافكرت لحظة، هذا

أعطانى كثيرا وذاك قليلا..
. ينبغى أولا، أن أعبر لعنقودة، عما يدور بداخلى. هى تصغى لكلماتى جيدا، وتتفهمها. ولعل هذا ماجعلنى شغوفا بها. وسوف تساندنى، عند العم زيد.

[١٤]

بعد صلاة العشاء، التأم مجلس زيد. وجلس قريبا منهم سمرة، وأمامه مقلمته ودواته. وأحضرت عنقودة سراجا، وبعض الورق. ابتسم زيد وقال:
ـ توقعت أن يطول سهرنا..
قال أبى:
ـ دعك من مداعبة فتاتك، وهات مايشغلك.
أردف معاذ:
ـ أقلقتنا يازيد، فأسرع.
قال زيد:
ـ تذكرون هذه الآية: «ويستفتونك قال الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤا هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم»
فى أى سورة نضعها..؟!
تفكر أبى وابن مسعود ومعاذ، وتذكروا، كيف كان أبو القاسم، كلما جاءه قرآن، سارع وأملاه عليهم، ويقول: ضعوا هذه الآية فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا، أما هذه الآية، فقد حضرته الوفاة، بعدها، دون أن يذكر شيئا بخصوصها.

أدرك زيد، مادار بخلدهم، فسأل:
ــ ألا تذكرون أحداً من الصحابة.. يكون على بينة من موضع هذه الآية.
قال ابن مسعود:
ــ لانذكر أحدا أخبر بذلك.
استمر زيد:
ــ ولكنكم تذكرون الآية جيدا
رد ابن مسعود:
ــ كثير من الصحابة يحفظها، وتوجد أكثر من مخطوطة لها
سأل زيد:
ــ اذن. أين نضعها..!
رد معاذ:
ــ نسأل الخليفة أبا بكر.
قال زيد:
ــ وماذا لو سألنا مانراه بشأنها..
رد أبى:
ــ أرى ان نضعها فى السورة التى تبحث فى نفس موضوعها
علق معاذ:
ــ تقصد «سورة النساء»
قال ابن مسعود:
ــ نِعْم الرأى.
قال زيد:
ــ أوافق، ولكن بقى شىء.
قال أبى:
ــ يبدو أنك ادخرت، لهذه الليلة، جميع الصعاب
ضحك زيد، وقال:

ـ صعاب.. عليكم..؟!
قال ابن مسعود:
ـ هات ماعندك.. وكف عن استثارة غرورنا.
قال زيد:
ـ أسماء السور، تعلمون أنها ليست من القرآن، فهل نكتبها..؟!
قال معاذ:
ـ أبو القاسم قال بالأسماء. ألا تذكرون، عندما ولدت لابن عباس فتاة، وأسرع يسر بالخبر إلى أبى القاسم قائلا: ولدت لي الليلة جارية، فقال له والليلة أنزلت علىّ سورة مريم، سمها مريم
قال زيد:
ـ لايخامرنا شك فى تسمية السور، ولكنها ليست من صلب الآيات، ونحن لانسطر إلا ماهو قرآن.
سأل أبى:
ـ وكيف يعرف الناس أن هذه سورة كذا، وتلك سورة كذا.
رد زيد:
ـ يحفظون أسماء السور، ومعروف أن سورة كذا تبدأ بكذا وكذا
سأل أبى:
ـ فى المخطوط ربما التحمت نهاية سورة مع بداية أخرى.
قال زيد:
ـ عندما ننتهى من سورة، نترك الرقعة خالية، أو نضع علامة تفيد الانتهاء، ونبدأ السورة التالية فى رقعة جديدة.
تفكر ابن مسعود وقال:
ـ لابأس عليك.
عندئذ زفر زيد بارتياح، والتفت الى عنقودة، وقال:
ـ أليس عندك شراب يابنيتى..؟!

علق أبى:

ــ مادمت قد أمرت بشراب، فأنت تمهد لصعب شديد..!!

ضحكوا جميعا، وقال زيد بعد أن استرسل فى ضحكته بعدهم:

ــ كل صعب.. بإعمال الفكر يسهل.

قال معاذ:

ــ أسرع بما عندك.

تمهله زيد:

ــ ليس قبل أن نرتوى.

أحضرت عنقودة إناءً من الفخار، به لبن، محلى بعسل النحل وبعض الأقداح. وعندما لحظوا حول الإناء خرقة جفت وقد تطبعت بشكله، أدركوا أن الإناء تعرض للهواء من زمن. جرى ريق كل منهم، مستشعرا مذاقا رطبا، خفف من حرارة الليلة ومن تشقق حلوقهم.

همت عنقودة، بعد أن صبت اللبن فى الأقداح، أن تناولهم بادئه بابن مسعود.

أمرها زيد أن تعطى سمرة أولا، ثم تصب لنفسها واحدا. بعدها تناولوا أقداحهم.

وحين أيقن زيد أنهم استعادوا اتقاد أذهانهم، قال:

ــ فى مرة سابقة، تأكد لنا أن: «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون» ليست نهاية سورة «التوبة».

قال أبى:

ــ أبو القاسم أقرأنى بعدها آيتين: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم».

قال زيد:

ــ أخبرنى عمر، أنه سمع هاتين الآيتين من أبى القاسم، ويرى أنهما لو كانتا ثلاث آيات لجعلناها سورة، ويرى أن نلحق الآيتين بآخر سورة من القرآن.

قال أبى:

ـ أرى أن نلحقهما بموضعهما فى آخر سورة « التوبة ».
قال معاذ:
ـ نريد شاهدين، لاتكون أنت أحدهما.
تطلع إليه أبى فى دهشة، ولكن زيداً وابن مسعود، كانا من رأى معاذ. فتوافر شاهدين، لايكون أحدهما عضوا فى لجنتهم، أقرب للصواب.
قال أبى:
ـ الآيتان مع أبى خزيمة الأنصارى
قال معاذ:
ـ أبو خزيمة شاهد. نريد شاهدا آخر
عصروا جميعا أذهانهم، لعلهم يتذكرون، أحدا آخر معه هاتين الآيتين. وحين أوشكوا على تأجيل البت، رفع زيد رأسه وقال:
ـ هانت
قالوا فى نفس واحد:
ـ ماذا..؟!
قال زيد:
ـ جعل أبو القاسم شهادة أبى خزيمة بشهادتين، لصدقه وأمانته.
تذكروا على الفور، حين ابتاع أبو القاسم فرسا من أعرابى، وأنكر عليه البيع، فشهد أبو خزيمة بتصديق النبى، فأمضى شهادته، ولم يطلب شاهدا آخر، وأخذ الفرس من الأعرابى، ومن يومها عُدت شهادة أبى خزيمة بشهادتين.
صدقوا على كلام زيد، وحذر معاذ:
ـ إياك والمزيد
وعقب أبى:
ـ كفانا صعاب الليلة
قال زيد:
ـ الباقى أمره هين.. بضعة آيات ليست موجودة فى المدينة. أرسلت من

يحضرها، ويستوثق بشهودها. بقيت مخطوطة فى الحيرة.. ترددت بشأنها.
سأل معاذ، بنفاد صبر:
ـ لم..؟!
رد زيد:
ـ عرض سمرة أن يذهب
قال سمرة:
ـ ائذن لى..
فالتفتوا إليه فى عجب، كأنهم فوجئوا بوجوده فى جلستهم. قال زيد:
ـ الطريق شاقة، والحرب هناك بيننا وبين الفرس لم تهدأ بعد.
قال سمرة:
ـ لاتخش شيئا
سرت النظرات بين زيد وضيوفه، محملة بالإشفاق على الفتى، لصغر سنه، ومقدرة فى نفس الوقت، توثبه، ورغبته فى الإسهام، فى نجاح عملهم.
قال أبى:
ـ لابأس.
تطلع زيد إلى عنقودة، وقال:
ـ وماذا لو أخذته المعارك الدائرة، فانخرط فى صفوف الجند، ونسانا..؟!
قال سمرة، وقد تلاقت نظرته بنظرة عنقودة:
ـ كيف أنساكم..؟!
تردد زيد قليلا، قبل أن يوافق، وقد أحس بلوم غير قليل إلى نفسه، وتساءل: أيكون سمرة قد قبل المخاطرة، لأننى أرجأت أمره مع عنقودة.. أترانى لم أعبر جيدا، فظن الفتى إرجاء طلبه بعض الوقت، رفضا، فآثر الابتعاد. قال زيد:
ـ فكر جيدا.
رد سمرة:

ـ حزمت أمرى
قال ابن مسعود:
ـ على بركة الله.
اضطرب السراج فى يد عنقودة، وهى ترفع يدها، لتنير باحة الدار، بينما زيد يوصل ضيوفه، وحين هم سمرة بالذهاب، حاولت أن تكلمه، لكنه لم يلتفت اليها، وانصرف فى صمت.

[١٥]

بدا وجه زيد جامدا، وقد أخذه الفكر إلى بعيد..
وعبثا حاولت أم خارجة، أن تسرى عنه. كان زيد يتألم لأنه طاوع سمرة، وسمح له بالسفر. حقا سمح لآخرين، لكنهم أكبر منه سنا وأعمق تجربة. لا.. ليس بسبب هذا يوخزه ضميره.
خشى زيد، أن تكون ثمة شبهة، فى نفسه، جعلته يوافق على سفره، ليخلو الجو أمام ابنه خارجة، أو على الأقل، ليتيح له الفرصة، للتفاهم، أو لتحسين علاقته مع عنقودة. والبعيد عن العين، قد يسقط من الوجدان.
وحاول المرة، تلو المرة، أن ينفى لنفسه، أنه لم يفكر، ولو للحظة واحدة، فى هذا الخاطر، حين استجاب لرجاء سمرة بالسفر. الا أن الهواجس، ظلت تنهشه، مخافة أن يكون هذا الاحتمال، موجودا، فى ثنايا نفسه، ولم ينتبه إليه، وجعله، دون أن يدرى، يوافق على سفره.
وظنت أم خارجة، أن سبب وجومه، وعدم استجابته لها، لإخراجه من حالته ماعاناه من قبل، حين رفضوا آية «الرجم»، التى كان عمر يصر على كتابتها. فربما شق على نفسه أن يرفض طلبا لعمر، الذى يحترمه ويقدره. ولكن زيداً، لاشك، قد رجح فى نفسه، أن عمر سوف يعذر، وسوف يقدر أسبابهم، التى لايحيدون عنها، خاصة بالشهود، وبالنص المكتوب.
واستشفت أم خارجة، من نظرات زيد، أن الأمر لايتعلق بعمر، وتسلل

إلى نفسها، إحساس مبهم، أن الأمر، يتعلق بسمرة، بشكل أو بآخر، ولكنها لاتدرى لِمَ.

نهضت، وقد فرغت حيلها، وهى تقول فى نفسها: لن تقدر عليه سوى النوار.

وحين سمع زيد، تنهيدتها، وهى تنهض، نامة، عن قلة الحيلة، أدرك، لمن ستلجأ كعادتها، فى مثل هذا الموقف. وكاد يرجوها ألا تفعل، ولكنه لشدة إعيائه، ولعدم اعتدال مزاجه، لم يستطع أن يثنيها، عما لاح له أنها فاعلة.

وأخذ زيد، يستجلى خباء نفسه، لعله يعثر، على سر حزنه، وقد غادره سمرة. أيكون بسبب محبته للفتى، وفيه فضلا عن اسمه، شهامة، ونقاء سريرة، وفطرة، تذكره دوما برفيق صباه، سمرة بن جندب. أم تراه، خشى على الفتى، وقد أحبه كابنه، أن يلمس النصر، فيغريه، فينخرط فى صفوف الجند، غافلا عما ينبغى دفعه. قد يحدث له مكروه، أو تنقطع أخباره، وساعتها، كيف يستطيع أن يسرى عن عنقودة.

وأخشى مايخشاه، أن يكون سمرة، ظن ارجاءه للأمر، رفضا له، وتفضيلا لابنه خارجة عليه، وهو ماقصد الا أن يشتد عود الفتى، ويرسى على صناعة له.

اقتحمت النوار وحدته، دون أن يشعر بها. اصطنعت ابتسامة. رأى زيد أن يبدأ فيوجز، حتى لاتطيل النقاش، لتخرج مابداخله، وهو فى حال لاتسمح له بالبوح. قال:

ـ لاشىء ياأم. أم خارجة يطيب لها أن تبالغ.

حاولت النوار، عبثا، الاحتفاظ بابتسامتها، قالت:

ـ وهل يخفى حالك على النوار..؟!

زفر زيد، ولم يستطع الكلام. استمرت النوار:

ـ أفرج عما بنفسك ياولدى.

لمست «ياولدى» ينبوع الحنان فى وجدان زيد. ود لو ينفجر على صدرها باكيا، كما كان يفعل وهو صغير، فتصفو نفسه، ويذهب ماكدره.

كان يستشعر رفقها به، وهى تربت على كتفيه الصغيرين، ويصغى للهجتها الودودة، تهون عليه الأمر، وأن أى شىء مهما كان عسيرا مآله الى انفراج. ينظر فى عينيها، فتحيطه نظراتها بالرفق والاطمئنان. عندئذ، ينطلق مرة أخرى، صبيا مرحا، مقبلا على أقرانه.
أمسكت النوار كلتا يديه بيديها، وقالت:
ـ لاتقل شيئا يازيد. فقط هون عليك.
بذل زيد جهدا لتحريك شفتيه. وضعت النوار راحة يمناها على فمه، تمنعه من الكلام. لم تشأ أن تضطره للكلام عما يؤرقه، مادامت نفسه غير مستعدة. ورأت أن تصرفه عن همه. قالت:
ــ بلغنى أن الخليفة أبا بكر، سيزور أم عمارة غدا.
ارتخى الوثاق عن لسانه، وردد:
ــ ياه.. نسيبة بنت كعب..!
وتذكر زيد، أن معها آية مكتوبة، تعتز بها، لأنها جاءت بسببها ولأنها ساوت بين الذكر والأنثى، لأول مرة فى اللغة العربية، التى بها صيغة المذكر تخاطب الإثنين، وصيغة المؤنث لاتستطيع، فعندما ذهبت يوما إلى أبى قاسم وقالت له: كل شىء للرجال فى القرآن ومأرى النساء تذكر ن، جاءت الآية: «ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما».
أشرق وجه النوار، حين قال زيد:
ــ سأذهب مع الخليفة.
ولم تكن رغبة زيد فى زيارة أم عمارة، لإحضار الآية المكتوبة فقط، ولكن تقديرا، وتكريما لها. فقد جاهدت يوم اليمامة، وجُرحت أحد عشر

جرحا، وقُطعت إحدى يديها، وقُتل ابنها. وهاهو أبو بكر، خليفة المسلمين، دائما يعودها، ودائما يتحدثون عن مآثرها. فقد بايعت أبا القاسم ليلة العقبة، وشهدت غزوتى الحديبية وخيبر، ويوم أحد استأذنت أبا القاسم، لتخرج للقتال، مع زوجها تميم بن زيد وابنيها. فأذن لها. وكانت فى مقدمة المدافعين عن أبى القاسم، حين أحاط به القرشيون، يرومون قتله. كانت أم عمارة تدافع بالقوس وتضرب بالسيف، جنبا إلى جنب مع على بن ابى طالب، وأبى بكر، وعمر، وطلحة والعباس والزبير بن العوام. ورغم تلقيها للطعنات، هرعت الى ولدها، وعضده ينزف، فعصبت له جرحه، وأنهضته ليقاتل بجوارها. ويلمح أبو القاسم ضارب ابنها، فينبهها، فاعترضته أم عمارة وبترت ساقه، فبرك على الأرض وقد فارقته الحياة. وحمل عليها المهاجمون، حتى فقدت ترسها. ويرى أبو القاسم، أحدهم منسحبا، فصاح به: إلق بترسك إلى من تقاتل. ففعل، والتقطته أم عمارة، وأخذت تدافع به مع المدافعين، حتى جُرحت ثلاثة عشر جرحا، وسالت الدماء منها، وأسرع إليها ابنها، ليعصب جروحها، بعد أن ناداه أبو القاسم.

قال زيد:

– ترفق الله بشيخوختك ياأم عمارة.. وأطال فى عمرك.. ولنأكل دوما من خبز شعيرك، كما كان يطيب لأبى القاسم أن يفعل.

تبسمت النوار، وقد وشت كلماته، أنه تأسى بذكر أم عمارة، عما بنفسه، فغادرته، وقد اطمأنت عليه.

أحس زيد بالامتنان نحو أمه. وتذكر فجأة عنقودة. ولام نفسه، لأنه لم يطمئن عليها، منذ أن سافر سمرة. وأخذ يتساءل: ترى.. كيف تقبلت الأمر. هل مست شعورها، دون أن أدرى، حين سمحت له بالسفر. حقا هى أرجأت الأمر أيضا. ولكن.. قد يكون إرجاؤها من باب التدلل.. وحتى لو كانت صادقة فى الإرجاء، حتى ننتهى من جمع القرآن.. فمن أدراك أنها تريده بعيدا عن العين. ترى.. هل آذيتها..؟!

أبلغ زيد أبا بكر، أنهم على وشك الانتهاء من مهمتهم، فطلب منه، أن يلتمسوا للقرآن اسما. طلب زيد، من ولده خارجة، أن يستأذن من صاحب دكانه، ساعة. وأمره أن يستدعى زملاء مجلسه. وحتى يحضروا، سأل عنقودة، أن تعد مدادا، وبعض الأقلام. وسمى لها بعض السور، لتحضرها، أطلق القرآن على نفسه، أسماءً فيها.

أخذت عنقودة، تبرى بعض أعواد البوص، بمدية لديها. حانت من زيد التفاتة نحوها، فلحظها، ساهمة. خشى أن تكشط ظفرا أو تجرح إصبعا، فصاح بها أن انتبهى.

لم تشأ عنقودة، أن تشعره بما بها، فاستدارت فى جلستها، قليلا، حتى لايلحظها، وحاذرت فى برى الأقلام. وحاولت أن تقنع نفسها، أنها عادية، وأن شيئا لم يتغير فى حياتها. وألم كسوف بنفسها، حين تذكرت ردها الخائب لسمرة، وهو يعرض عليها فكرة دكانه. ساعتها خبا الألق فى عينيه. ترى.. هل ستظل هذه الذكرى، تراوده، وتؤلمه فى رحلته، أم ينساها، ولايتذكر، سوى أوقاتنا الطيبة معا. أترانى دفعته دون أن أدرى إلى الرحيل، حين ارجأت طلبه حتى ننتهى من مهمتنا، وحين لم أهش لفكرته. وهل كنت أستطيع أن أثنيه عن عزمه، وقد ارتبط بالرحيل أمام الرجال..؟! والآن وقد رحل.. فمن يدرى متى يعود.. أليس من الجائز، أن تخلب لبه، قوات الغزو، فينضم إليها، لعله يحصل على نصيب من الغنائم، يساعده على فتح دكانه.. لا.. لا أظن أن دكانا لبيع الورق والأقلام فى حاجة إلى مال كثير. لماذا أطفأت نظرته. لماذا ثبطت همته. هل اتخذ قراره بالرحيل بعد ذلك، أم أن قراره لا علاقة له بما دار من جدل بيننا.

دمعت عيناها، فالتفتت إلى زيد. وجدته مشغولا عنها. مسحت عينيها بظهر يمناها، ورددت فى نفسها: حقا لكل شىء بداية، فلماذا لايكون هو

البادىء بدكان لأدوات الكتابة وكتابة الرسائل. آه.. ألم تهتدى إلى ذلك إلا بعد أن رحل ياحمقاء. وهل كان فى الحسبان أن يرحل..؟!

دخل ابن مسعود. انصرفت عنقودة إلى باحة الدار. تعد بعض المداد.

أخبر زيد ابن مسعود، عن رغبة أبى بكر. ففكر ابن مسعود قليلا. وقال:

— لو أرد أبو القاسم تسميته لفعل.. فلماذا نفعل نحن..؟!

قال زيد:

— أترى.. لو عندك نسخة من القرآن. على حرف يطاوعك فيه لسانك. أن يقال قرآن ابن مسعود، وماهو بقرآنك..

ضحك ابن مسعود وقد فهم مايرمى إليه. وأطرق بعض الوقت. سأل:

— ألم يسم القرآن نفسه فى آياته..؟

رد زيد:

— قبل دخولك. كنت أستعرض هذه الأسماء. وقرأ:

— «هذا بلاغ للناس»

فتساءل ابن مسعود:

— هل نسميه البلاغ..؟

وقرأ زيد، وابن مسعود يردد الاسم وراءه:

— «إنه لقرآن كريم»

— القرآن الكريم

— «نزل الفرقان على عبده»

— الفرقان

— «واعتصموا بحبل الله»

— الحبل

— «وأن هذا صراطى مستقيما»

— الصراط المستقيم

— «عم يتساءلون عن النبأ العظيم»

— النبأ العظيم
— «هذا بيان للناس»
— البيان
— «من بعد ماجاءك من العلم»
— العلم. أسماء كثيرة، ولو شاء القرآن، لاقتصر على اسم منها.
دخل أبى، ومعاذ، وعندما علما برغبة أبى بكر، سأل معاذ:
— أليس هو القرآن..؟!
رد أبى:
— قال أبو القاسم يوما: «خفف على داود القرآن». وكان يقصد الزبور.
ربما لو أطلقنا على كتابنا اسم القرآن، خلط الناس بينه وبين الزبور.
تناول زيد رقعة، وقرأ:
— «واذا آتينا موسى الكتاب والفرقان»
قال أبى:
— إذا أسميناه الفرقان، ربما اختلط الأمر على الناس. فى هذه الآية سميت التوراة بالفرقان.
قال معاذ:
— ونحن نجمع القرآن، التمس بعض الناس أن نطلق عليه انجيلا. والتمس آخرون أن نسميه سِفْرا.
قال أبى:
— سوف يختلط الأمر، مع كتب أخرى تسمى بهذه الأسماء. والناس يتداولونها.
قرأ زيد:
— «إن هذا لفى الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى»
قال أبى:
— لو أسميناه الصحف، فالاختلاط قائم مع صحف ابراهيم وموسى.
وأضاف معاذ:

ـ وأى كتابة على الرق، قد تسمى صحفا
قرأ زيد:
ـ «فمن شاء ذكره، فى صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة»
وضع زيد مافى يده وقال:
ـ نسميه الصحف المكرمة، أو الصحف المطهرة، وبذلك نميزه عن صحف إبراهيم وموسى.
قال أبى:
ـ قد يفهم أحد، أن صحفنا مطهرة أو مكرمة، والصحف الأخرى ليست كذلك.
تفكروا قليلا.. وقال ابن مسعود:
ـ رأيت فى الحبشة، كتابا عزيزا لديهم، يسمونه المصحف، سموه به.
قال أبى:
ـ المصحف.. لم ترد هذه الكلمة فى القرآن، ولو شاء لاستقر على اسم له.. وهذه الكلمة، ليست بعيدة عن كلمة الصحف، التى وردت عدة مرات.
رددوا جميعا، كلٌ لنفسه بصوت خافت:
ـ المصحف.. المصحف..
قلب زيد فى صحائفه.. وضعها جانبا. أشرقت أساريره وقال:
ـ ماانتهيتم إليه..؟!
قالوا فى نفس واحد:
ـ المصحف.

الجزء الثاني

[١]

عندما علمت عنقودة، بعودة حذيفة بن اليمان، من بلاد العراق، استبدت بها الأشواق. وتساءلت: هل عاد سمرة، معه، واذا كان قد بقى. هل أصابه مكروه. وهذا دأبها، كلما عاد أحد، وتروح تؤنب نفسها، أنها السبب فى سفره، هربا مما يضطرب فى وجدانه، حيالها. ولايهدأ بالها، إلا قليلا، حين تتذكر، تأكيده لها، قبل سفره، أنها ليست السبب. وتعود تلوم نفسها، لأنها لم تطعه، وتوافق على الاقتران به. ماذا لو جعلته يسافر، وهو مرتاح البال.

كيف تلقى حذيفة بن اليمان. علمت أنه أسرع فور وصوله للقاء أمير المؤمنين، عثمان بن عفان، فى أمر هام.

ترى.. ماالأمر الهام. ودت لو تسأل خارجة، أن يستفسر لها. خشيت أن تثير غيرته، وقد لمست، من بعض أحواله، أنه يكن لها حبا.

ولكن، ماذنبى، وقد التزم الصمت، ولم يصارحنى بشىء. أتراه، اعتبرنى، وقد شببت معه، فى بيت واحد، ملك يمينه. لقد أصبح منى بمثابة الأخ. ولاأستيطع أن أفكر فيه، على نحو آخر. الحب يذبل بالصمت ياخارجة، ويزدهر بالبوح. باح لكِ سَمُرة بشعوره تجاهكِ. فهل أثمر ذلك..؟!.. وهل أنا ملك نفسى..؟!

وحين علم خارجة، مابينى وبين سمرة، صرح لى أنه على استعداد لأن يفعل من أجله أى شىء، حيث يعتبره أخاً له. ساعتها، لاأدرى، ماجرى لى، وجعلنى أفهمه، أنه بموقفه هذا، لايتنازل عن شىء، لأن شعورى تجاهه، شعور الأخت لأخيها. عبس خارجة، وغادرنى، وظللنا فى خصام عدة أيام. لماذا كنت قاسية هكذا..؟! لماذا لم أدعه يعتقد أنه قدم من أجلى تضحية..؟!. ماذا كان سيضيرنى، لو تركته يعتقد ذلك..؟!. آه.. رغبتى

اللعينة، ألا يظن أحد أنى مدينة له. لكن.. لاتنكرى.. شعوره طيب. وربما كان يجاملك.. أما كان الأفضل أن أرد على المجاملة بأحسن منها، وألا أوذى شعوره..؟!

أتراني، خشيت أن يعتقد شيئا، خلافا للحقيقة. تبا لك عنقودة دائما تحبكين الأمور. مالك وهذا الآن. عليك تسقط أخبار حذيفة، وماعساه يكون قد عرف من أخبار سمرة.

خطت إلى صحن الدار، إلتماسا لخارجة، فهذا موعد أوبته. تريد أن يبدو الأمر كأنه مصادفة.

مأن رآها خارجة، حتى أقبل عليها. ابتدرها وبصوته رنة من الفرح:

ــ أبشرى عنقودة.

دق قلبها بشدة وسرعة، ولم تستطع النطق. قال خارجة:

ــ سمرة بخير، سبق ركب حذيفة بن اليمان بعدة أيام.

هدأ وجيب صدرها. وأحست بامتنان بالغ نحو خارجة. أرادت أن تصرف الحديث الى وجهة أخرى، حتى لاتفضحها أشواقها. قالت:

ــ فيم العجلة، فى لقاء حذيفة للخليفة..؟!

تأملها خارجة مليا. اختلجت وجنتاها واحمرتا. وتساءلت: أتراه أدرك مايدور فى نفسى. تطلعت نحو سعف نخلة، يطوح به الهواء، بالقرب من باب الدار. قال خارجة:

ــ أبلغ حذيفة بن اليمان الخليفة عثمان، أنه شهد فى أرمينية وأذربيجان، جند الكوفة يتعصبون فى تلاوة القرآن لمصحف عبد الله بن مسعود، وجند الشام يتعصبون، لمصحف أبى بن كعب، وأوشك خلافهم، أن يتحول الى اقتتال، واتهام بالكفر والتحريف.

وطلب من عثمان أن يدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب، اختلاف اليهود والنصارى. فاليهود معهم نسخة من التوراة، والسامرة معهم نسخة أخرى يخالفونهم فيها فى ألفاظ كثيرة، ومعان أيضا. وليس فى توراة

السامرة حروف الهمزة ولاحرف الهاء ولا حرف الياء. والنصارى أيضاً بأيديهم توراة، يسمونها العتيقة، وهى مخالفة لنسختى اليهود والسامرة.
سألت عنقودة بلهفة:
ــ بماذا رد الخليفة..؟
قال خارجة:
ــ أرجأ البت فى الأمر، حتى يلقى صحبه وصحابة النبى.
ازداد الوجيب فى صدرها، وسألت:
ــ هل يأخذ الخليفة بقول حذيفة..؟!
نظر إليها خارجة، دهشا، وقال:
ــ كيف لايأخذ، بقول رجل مثل حذيفة، بطل معركة نهاوند. تسلم القيادة بعد مقتل النعمان بن مقرن، ولحصافته، وضع أخاه نعيما مكانه، تكريما له، وكان هو القائد الفعلى للمعركة. واستطاع أن يهزم الفرس، وهم فى مئة وخمسين ألف فارس، بينما جيشه لايزيد عن ثلاثين ألف فارس. وبعد الحرب، صرف وقته فى تعمير الكوفة.
أصيبت ملامح عنقودة بالخذلان، وتمتمت:
ــ اذن فعثمان يعرف قدره.
ازدادت دهشة خارجة، وقال:
ــ يعرف قدره من زمن. أبوه قتل يوم أُحد بيد أحد المسلمين خطأ، وأمر أبو القاسم بصرف دية له. اعتذر حذيفة عن قبولها، وتصدق بها.
صمتت عنقودة، ولاح من نظراتها التائهة، أن شيئا يضطرب فى تفكيرها.
استمر خارجة:
ــ والرجل عنده فراسة فى قراءة الوجوه، ومعرفة مايدور فى الأعماق.. ورجل هذا شأنه، وتلك شيمته، يكون كلامه مصدقا، عند الخليفة.
غادرها خارجة، وهو فى عجب من سرحانها. سمعت عنقودة طرقا على الباب، وجدت رسولا، من عند الخليفة، يطلب زيدا. قالت فى

نفسها: صح ماتوقعته، واستدعاء الخليفة لزيد بعد لقاء حذيفة، يثبت ذلك. ولاتفسير له، سوى أنه سيكلفه بكتابة القرآن على وجه واحد، حتى لايختلف المسلمون. سيشغل زيد، وتشغل النوار، وأهل البيت جميعا، ولن أستطيع تركهم فى وقت كهذا. ومن أدراك أن سمرة سيطلبك..؟!.. باغتها السؤال، وعجبت لأنها لم تفكر فيه من قبل. وقفت حيرى بعض الوقت، وبدأت ملامح الأشياء لاتبين والليل يغرس أوتاده. يممت شطر حجرتها، وسؤال آخر يلح فى فكرها: ترى.. هل مازال سمرة على العهد..؟!

[٢]

لحظ سمرة، كثرة الناس، أمام دار عبد الله بن عباس. حاول المروق وسطهم، ليقترب من الباب. وحين تعذر عليه ذلك، وقف مكانه.

ظهر غلام ابن عباس بالباب، وقال:

— من يريد السؤال عن القرآن وتأويله.

دخل بعض الناس. وأغلق الباب.

تشاغل سمرة، بتقليب الفكر، فيما جاء من أجله. وخشى أن يتلعثم إذا ماأصبح فى حضرة ابن عباس. ورغم مايعلمه عنه من سماحة، وبشاشة، وأخذه الناس بالرفق والحجة، إلا أنه، وهو الحابى على الطريق، غشاه غير قليل من الاضطراب، وهو يتأهب للقائه.

انتبه من أفكاره، على قول غلام ابن عباس:

— من يريد أن يسأل عن الحلال والحرام.

وجاء صوت ابن عباس، من فرجة الباب:

— إخوانكم.

يحث من فى الداخل، على الخروج، ليفسحوا مكانا لغيرهم.

أغلق الغلام الباب. سحب سمرة ناظريه، حانت منه التفاته إلى الجهة

الأخرى. طالع على البعد عنقودة. لم يصدق عينيه. دقق النظر. هى بخفرها وحيائها.
وبدلا من محاولة الاقتراب من الباب، أخذته قدماه إلى الناحية الأخرى.
فجأة تخشبت قدماه، وقد قفز سؤال فى خاطره:
أتراها تزوجت..؟!. ذهب أبو بكر، وتولى عمر. وذهب عمر وجاء الخليفة عثمان. لاشك أن عندها أطفالا، بلغوا سن الحلم. ولعل هذا ماجعلها لاتقرب من دكانه. ربما لم تسمع به. فعدة أيام، منذ عودته، ليست كافية لأن يشاع خبره. حاول أن يحرك قدميه. وشجع نفسه: هيا يارجل. منذ أن عدت وأت تتحين فرصة، لتعرف أخبارها. هاهى أمامك، أقدم ولاتتراجع. خشى أن يسمع منها، ماقد ينفخ الجمر الموءود، فيحمر ويشتعل. وهو لايريد منها، إلا كلمات، تكون بردا وسلاما.
أى سلام.. وقد طال الغياب. معها حق لو ظنت أننى انصرفت عنها. فلاشك أنها غضبت حين لم أعد، وأرسلت ماطلبه زيد من آيات، مع أحد الجرحى العائدين.
حانت منه التفاته أخرى ناحيتها. لحظ أنه اقترب منها، دون أن يدرى. خيل إليه أن حمرة خفيفة صبغت وجنتيها. إذا لم يخدعنى نظرى، فقد أدركت أننى رأيتها.
اشتد الوجيب فى صدره. ولم يعد يدرى علام يدل احمرار وجنتيها. هل لأنها مازالت على العهد باقية، أم هى الذكرى بعثت الاحمرار فى الرماد الخابى.
هى على بعد خطوات منك، لم لاتقترب منها أكثر، وتسألها، وتريح نفسك.
بدا له اجتياز الجبال والتباب، أهون عليه، من اجتياز هذه الخطوات.
علا صوت غلام ابن عباس:
ــ من يريد السؤال عن الفرائض.
خف الجمع أمام الدار. وسمرة بين الاقتراب من الباب.. والاقتراب من عنقودة.
وسرعان ماأعلن الغلام:

ـ من يود السؤال عن العربية والشعر.

أدرك سمرة، أن السائلين عن الفرائض، ليسوا كثيرين، سألوا ماعن لهم، وخرجوا. فجأة مرت به عنقودة. عقلت المفاجأة لسانه. قالت عنقودة:

ـ أحضر درس العربية والشعر.

عجب سمرة لقولها «أحضر درس العربية والشعر» بلهجة عادية. كأنها كانت معه بالأمس.

وسألت عنقودة بنفس لهجتها العادية:

ـ وفيم جئت..؟

حاول سمرة أن يستشف شيئا من لهجتها، فلم يستطع. وحاول أن يستنطق تعبير وجهها فلم يفلح، قال:

ـ جئت استأذنه فى نسخ تأويله للآيات، وآرائه فى أحكام الشرع

قالت عنقودة:

ـ فتحت دكانا اذن..؟!

أومأ سمرة برأسه، فاستمرت عنقودة:

ـ أما كان الواجب أن تعلمنا..؟!

طب قلب سمرة فى صدره، وارتج عليه القول. هل يدل استنكارها على انتظارها له، أم يدل على سخريتها منه. قال وهو فى حيرة من أمره:

ـ ألم يخبرك خارجة..؟!

ردت عنقودة:

ـ أخبرنى بعودتك.. وانتظرت زيارتك.. ولما طال الانتظار، ظننت أنك انصرفت عنا.

وضح الأمر اذن. تزاحمت الكلمات فى فمه ولم يسعفه بيانه، أكثر من القول:

ـ انشغلت فى تأثيث الدكان

عاجلته عنقودة:

ـ عنا..؟!

قال سمرة:

ــ ليس الأمر هكذا..

قالت عنقودة، ورنة الامتعاض فى صوتها:

ــ ألم يكفك الانشغال طوال الأعوام الماضية..؟!

عصاه لسانه، فقلدته عنقودة ساخرة:

ــ ليس الأمر هكذا..

ولما استمر فى الصمت، سألت فى حدة:

ــ كيف كان الأمر اذن..؟!

بعد لأى، طاوعه لسانه، فقال:

ــ كان الأمر غلابا. انكسر جنودنا فى الحيرة، بعد الاستيلاء عليها. استردها الفرس، فكيف لا أنضم لجنودنا، وهو يحاولون استردادها..؟!

سألت عنقودة:

ــ وبعد..؟

قال سمرة:

ــ جاء أمر الخليفة بفتح العراق. جندنا قليل، والجرحى كثُرُ، فكيف كنت أتركهم فى ظرف كهذا..؟!.. ووجدت نفسى معهم.. ننتقل من بلد إلى آخر.. حتى استقر بنا المقام فى الكوفة. لان تعبير وجه عنقودة. فأدرك سمرة، أنها بدأت تدرك الموقف.

تساءلت عنقودة فى لهجة وشت باستعدادها للتسامح:

ــ أما من سؤال.. أما من رسالة..؟!

التقط سمرة أنفاسه.. وقال:

ــ كنت أتحين الفرصة لأرسل لك.. ولكن.. كان الجميع ذاهبين إلى القتال.. ولا أحد يعود إلى الخلف أبدا.. حتى الجرحى، كنا نمرضهم خلف طوابيرنا، لحاجتنا الشديدة لجهدهم.

قالت عنقودة وقد عاودتها رقتها:

ـ وهأنت عدت.. أما كان الأولى أن تسارع لزيارتنا..؟!
قال سمرة:
ـ اعتزمت بعد أن أهيء الدكان.
قالت عنقودة، وابتسامة ترف على شفتيها:
ـ تهيء الدكان.. أم تتنسم أخبارنا..؟!
احمر وجه سمرة، وقد أدرك أنها قرأت أفكاره. قالت عنقودة:
ـ لماذا لم تسأل خارجة، وقد التقيته..؟!
سارع سمرة بالرد:
ـ انتظرت أن يخبرني من تلقاء نفسه، ولما لم يفعل غلبني الحياء.
انتبها على صوت غلام ابن عباس:
ـ من له حاجة فنقضيها..
نظرا حولهما. وجدا آحاد الناس في زوايا الطريق.
قال سمرة:
ـ بنا.. مالت الشمس
قالت عنقودة بدلال:
ـ صرفتني عن درس العربية.
تحير سمرة بماذا يجيب. فاستمرت عنقودة:
ـ سامحني.. صرفتك عن الاستئذان.
قال سمرة:
ـ لم تصرفيني عن شيء، فالاستئذان ممكن في وقت آخر. ويكفي أنك أعدت لي روحي.
سارا صامتين، ومنعها الحياء من التطلع إليه. قال سمرة:
ـ غدا أحضر للقاء عمي زيد.
أسرعت دقات قلب عنقودة، والتهبت وجنتاها. قالت والخجل يغلف صوتها:
ـ ليس قبل أن نتأكد من نجاح صناعتك.

قال سمرة:
ـ ناجحة بإذن الله.
سألت عنقودة:
ـ وفيم تأكدك..؟!
قال سمرة:
ـ هل سمعت عن صناعة المنبر..؟!
تعجبت عنقودة من لفظ «المنبر»، فقال سمرة:
ـ هذا أيضا شيء جديد، لم يكن موجودا من قبل. رأيتهم فى العراق يجيدون صناعته وتجارته، وسمعت أنهم فى مصر، يتفننون فى زخرفته ودهانه.
رددت عنقودة:
ـ المنبر.. المنبر.. ماذا تعنى..؟!
ضحك سمرة، وقال:
ـ كان أبو القاسم عندما يخطب فى مسجده بالمدينة، يستند إلى جزع نخلة فى مقدمة المسجد. واحتاج الأمر عندما كثر عدد المصلين، إلى مكان مرتفع يحدث من فوقه الناس، فصنعوا عدة درجات من الخشب ليصعد عليها.. هذه الدرجات اتخذت الآن أشكالا عدة.. وتسمى منبرا.
قالت عنقودة، وهى تحاول أن تدرك الأمر:
ـ ليس معنى نجاح صناعة.. أن تنجح أخرى..؟!
رد سمرة:
ـ كانت هناك حاجة لصناعة المنبر.. فقام الناس بصناعته.. والآن.. أرى الناس فى حاجة إلى صناعة الكتابة وأدواتها..
بدا على وجه عنقودة، أنها بدأت تقتنع بوجهة نظره. لكن غيمة لاحت فى عينيها، لمحها سمرة، فحثها على البوح بما فى خاطرها، وهى تتأبى. عز عليها أن تلقى الغيمة بظلها على اخضرار حلمه. قالت:
ـ عليك إلى جانب رأيك أن تتمثل رأى أبى زيد، وترد عليه.

سأل سمرة فى استنكار:
ــ وماحاجتى إلى ذلك..؟!
قالت عنقودة:
ــ رغم قراءتك للقرآن.. واعتزامك الاتخاذ من نسخه صناعة لك.. فلم تفد منه كثيرا.
سأل سمرة:
ــ كيف..؟!
قالت عنقودة:
ــ القرآن إذا ماعرض لقضية، أتى بوجهة النظر المخالفة ورد عليها.
حاول سمرة، أن يتذكر آيات القرآن الدالة على ذلك. أسعفته عنقودة:
ــ جاء القرآن بما قال به أعداؤه «وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر» عرض ماقالوه بأمانة ثم رد عليهم «ومالهم بذلك من علم ان هم ألا يظنون» أى من أين لهم اليقين ووسيلته العلم.. وكيف علموا..؟!.. إنهم يظنون ووسيلتهم الوهم لا العلم.
أطرق سمرة وقد أحس بالخجل. قالت عنقودة:
ــ فما بالك وزيد ليس عدوا لك.
أخذ سمرة، يجهد نفسه فى تذكر رأى زيد، واعتزم أن يقنعه بسلامة مشروعه، وثقته بنجاحه.
قطعت عنقودة أفكاره، وقالت، وقد لحظت صمته:
ــ أتراك غضبت منى، لأنى قلت ماعن لى.
رفع سمرة رأسه، ونظر فى عينيها. أخذ بجماع نفسه، ماطالعه فيهما، من شوق ومحبة، ومودة، وعجب لحزن شفيف، مشبع بندى رقيق، شاب نصاعة البياض فى أديمهما، وقال:
ــ بل لهذا أحبك عنقودة.
دارت عنقودة وجهها بسرعة. ودعها سمرة، فاستقبلت الطريق المؤدية

إلى بيتها، وتركت لنفسها العنان. انحدرت دمعتان حارتان، وتساءلت: ألا يعود سمرة إلا الآن.. وقت أن كلف الخليفة عثمان زيدا بمراجعة القرآن، وكتابته بحرف واحد؟!.

[٣]

وقف زيد بباحة الدار، ونادى خارجة. وحين أتاه أسر له:
ـ أكرم الضيفان خارجة.
وعاد، مسرعا، إلى جلسائه، عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث، الذين كلفهم عثمان بمساعدته، فى الاستقرار على مصحف واحد.
وقف خارجة حائرا فى باحة الدار. لحظته أمه وقالت:
ـ اذهب لجارنا.
رد خارجة فى تبرم:
ـ كل يوم ياأماه.
ردت فى عصبية:
ـ ليس هذا وقت نقاش.
نطقتها وأحست بالإشفاق نحوه. وتساءلت فى عجب: لماذا رفض زيد، مااقترحه ابن الزبير، على أمير المؤمنين عثمان بن عفان، أن يعطيه شيئا من بيت المال، يستعين به على اكرام الضيفان، وهو يقوم بمهمته. ولم تستطع أن تفهم، إصرار زيد، على مراجعة مصادر القرآن مرة أخرى، سواء من صدور حفظتها، أو ممن عندهم آيات مكتوبة.
أما كان أريح له، ولمن معه، أن يراجع المصحف المحفوظ، عند حفصة بنت عمر، ويستقروا على كتابة واحدة، وينتهى الأمر..؟!
مضى خارجة على مضض. ولم يكد يفتح الباب، حتى فوجىء بغلام بنى النضير، أفسح له الطريق، دخل وخلفه عدة خراف. أدركت أم خارجة

الموقف. ترجم زيد إلى العربية رسالة وصلت سيد بنى النضير بالسريانية، فأراد مكافأته. فبعث غلامه بهذه الهدية.
تبادلت أم خارجة وابنها النظرات. وتحيرا، ماذا يفعلان..؟!
أدرك خارجة، مايدور فى فكر أمه. لو قبلت ماأرسله سيد بنى النضير، دون إخبار أبيه، سوف يغضب غضبا شديدا. وإذا ردت الهدية، ربما استشعر سيد بنى النضير إهانة بالغة. واستشف من نظرتها إليه، أنها لاتريد أن تعرضه لذل السؤال.
اكتسى وجهها حزما. أمرت خارجة أن يذهب، لابلاغ من عنده رقاع بالحضور. ونبهت عليه، ألا ينسى إحضار الشهود.
انصرف خارجة، فالتفتت إلى غلام سيد بنى النضير، وأبلغته أن يشكر سيده، وأن يحمل إليه تحيات زيد. ووطنت النفس، على تحمل عاصفة زيد القادمة. وتذكرت النوار، فلاكت فى خاطرها: ولم لا أشركها.. لعلها تخفف من عنف الريح.
وأخذت تقدر فى فكرها، ماقد يقوله زوجها، مما تعرفه عنه من تصرف وفكر، وتعد الرد الملائم، راجية ألا يتطور الموقف إلى مالا تحبه ولاترضاه.
ـ من أين لك هذا أم خارجة.
ـ حقك أبا خارجة، ألم تؤد خدمة لسيد بنى النضير، سيفيد منها فى تجارة أو عمل.
ـ لم يأمرنى أبو القاسم بتعلم السريانية والعبرية، لأتقاضى عن ذلك أجرا، ولكن خدمة للناس.
ـ أيام أبى القاسم كنت تترجم رسالة من حاكم أو من وافد.. فلك الحق فى اعتبارها خدمة عامة.. أما هذه فخدمة للرجل وعشيرته.
سيرد عليها زيد بامتعاض:
ـ وماالفرق ياامرأة..؟!
ـ الفرق واضح كالشمس أبا خارجة.
عند هذا الحد، اذا لم يقنع عليها أن تلتمس وسيلة لتلزم الصمت. فلن

تكون أفضل حالا من أمير المؤمنين عثمان، حين حاول معه، فرد عليه، كما سمعت منه:

– مراجعتى للقرآن، تكليف، لاأقبل عليه، عطية من بيت المال. وعبثا حاولت أم خارجة، اقناعه، أن عطية من بيت المال، أفضل من سؤال الجار. ونحن لاندرى متى نرد ماناخذه.

يرفع زيد حاجبيه الأشيبين ويقول:

– اتق الشبهات أم خارجة، ولاتنسى أننى على رأس القضاء بالمدينة.

ويأتى صوت خارجة محتجا:

– ليس فى الأمر شبهة أبى.

يرد زيد فى تؤدة:

– لا.. يابنى.. سيظن الناس، أننا نأخذ أجرا، على خدمة، ارتضينا القيام بها.

وتفكرت أم خارجة، وماذا لو قال لها:

– ردى ماأتانا

– كيف أرده وقد تناول منه الضيفان..؟!

سيقطب جبينه، ويأتى صوته مشروخا:

– أوقعتنى فى المحظور ياامرأة..!

عندئذ أخفف عنه وأقول:

– رددت عليه هدية، واثنتين فى السابق، ألا تتمثل ماقد يستشعره الرجل من خِزىً..؟!

وتساءلت أم خارجة: أتراه يعيد النظر. وتذكرت مجادلة سمرة معه بالأمس، عما يفعله فى دكانه. وزيد يصر على أن كتابة الآيات والرسائل، خدمة عامة لايصح أن يتقاضى عنها أجرا. وسمرة يدفع بأنه يبذل وقته وجهده، فكيف يطعم نفسه اذن. يطلب منه زيد أن يلتمس طعامه، من رعى، أو تجارة. فيرد سمرة، أن هذه تجارته. يقطب زيد جبينه مفكرا، ويقول: ألا تكسب من بيع ماتصنعه من ورق وأقلام. يرد سمرة أن هذا

لايكفى. ويبلغ نفاد الصبر مبلغه من زيد فيقول: على أية حال لاتتقاضى أجرا من معوز. فيتجاوب معه سمرة قائلا: لك هذا ياعمى.
وتفكرت أم خارجة: هل سلم، على مضض، حين أتعبه الجدل، أم لأن قناته قد لانت. أملت أن تكون قناته قد لانت حقا، ويقبل مساعدة أمير المؤمنين. والا، كيف ندبر نفقتنا، من رعى أو تجارة، كما يقول، وهو مشغول فى الصباح فى مجلس القضاء والفتوى، وفى المساء فى مراجعة القرآن. ويشغل معه أحيانا، ابنيه، سعيداً وخارجة، ويصرفهما عن تجارتهما. وعطيته عن قيامه بالقضاء، تذهب فى اكرام جلسائه، وحين حاول سعيد بن العاص، أن يسهم بشىء فى نفقة مجلس القضاء، رفض اتقاءً للشبهة، لأنه يحضر مجلسه أحيانا.

[٤]

قال العجوز:
ــ ياضفدع ابنة ضفدع، نقى ماتنقين، فلا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين.
انفجر زيد ضاحكا، وتجاوب معه عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث.
اهتزت لحية العجوز، البيضاء الهشة. وتحفز الحضور للكلام، وقد تزاحمت الكلمات على أطراف ألسنتهم. أسكتهم زيد بإشارة من يده، بينما قال العجوز:
ــ أستطيع إحضار شاهدين.
قال زيد:
ــ ماقلته لايحتاج إلى شهود، فهو لايحرك فى نفوسنا..
لم يدعه عبد الرحمن بن الحارث، يستمر فى كلامه، وقال:
ــ سوى ضحكات السخرية.

نظر إليهم العجوز، بعينين ضيقتين، بين تجاعيد وجهه، واعترته حيرة.
قال زيد:
ـ لكلمات القرآن طلاوة. اسمع.. «وجاءوا على قميصه بدم كذب». لم يقل زعم أخوة يوسف أن قميصه، ملوث بدمه وماهو بدمه. ولم يقل لوثوا قميصه بدم ذئب ليخدعوا أباه. قال القرآن كلمتين، موجزتين أدت المعنى بإفاضة، ووقع مؤثر فى النفس.
قال عبد الله بن الزبير بن العوام:
ـ أكمل الآية زيد، عافاك الله: «قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون». الصبر الذى يعنى المكابدة، والمجاهدة، حين نتحمله فى واقعة لاحيلة لنا فيها، فهو صبر جميل، أى طلاوة، حين توصف المكابدة، التى يجب أن نتحملها، بالجمال. وأى وقع لطيف فى النفس، يجعلها تتحمل بيسر، مايجب أن تتحمله.
قال سعيد بن العاص:
ـ ومهما كررت «فصبر جميل» لاتبلى أبدا.. كرر «نقى ماتنقين» وأخبرنى عما يحدث لك.
أحس العجوز بالاضطراب. ونهض ليستأذن فى الانصراف. عاجله عبد الرحمن بن الحارث:
ـ تريد أن تخلص بنجاتك من أيدينا..!
قال سعيد بن العاص:
ـ ذكرتنى بآية فى سورة يوسف أيضا: «فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا». أراد أخوة يوسف أن يخلصوا بنجاتهم، بعد أن عجزوا عن إقناعه بعدم حجز أخ لهم. أى تعبير موجز وجميل «خلصوا نجيا» وأنت تريد أن تخلص منا، ولم تأت بقرآن..؟!
فجأة خطرت لزيد فكرة، فسأل العجوز:
ـ لك أبناء..؟

انطلق الرجل، كأنما يهرب من سيف، سيهوى فوق رقبته:
ـ اثنان عاصيان.

تبادلوا جميعا النظرات. نهض زيد، ليسند العجوز وهو يقول:
ـ هون عليك أخا العرب.

عاد زيد بعد أن أوصل العجوز إلى الباب. بادره عبد الرحمن بن الحارث:
ـ أفلت العجوز.

قال زيد:
ـ كفاه أن أضحكنا بكلمات الكذاب مسيلمة

قال عبد الرحمن بن الحارث:
ـ أما كان يجب اقتياده الى أمير المؤمنين عثمان لعقابه..؟

قال عبد الله بن الزبير:
ـ لهجة العجوز صادقة، فلعله ظنها قرآنا.

قال عبد الرحمن بن الحارث:
ـ أو لعل الكلمات صادفت هوى فى نفسه. أخذ الضفدع على محمل الابن العاصى.. أى مهما عصاه، فلن ينال منه شيئا.. كما لن يكدر الضفدع الماء، مهما نق.

قال عبد الله بن الزبير:
ـ أيا ماكان الأمر، فقد وشت هيئة الرجل، عند انصرافه، بالخِزىّ.

قال عبد الله بن الحارث:
ـ كان الواجب عقابه، حتى لانشجع غيره، على مثل فعلته.

قال زيد:
ـ لو عاقبناه، لهرب الناس من مجلسنا، خشية أن يكون بعض مالديهم ليس بقرآن. ونحن نريد أن يُحضر لنا الجميع مالديهم دون خوف.

صمتوا جميعا، يتفكرون فى كلمات زيد، ولما لم يعلق أحد، قال عبد الله بن الزبير:

– ماذا لديك لنا اليوم زيد..؟!

قال زيد:

– آية الرجم.. هل جد جديد بشأنها..؟

قال سعيد بن العاص:

– لاجديد سوى مارواه عبد الله بن عباس، قال: «خطبنا عمر بن الخطاب قال: كنا نقرأ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة.. قال: لولا أنى أكره أن يقال زاد عمر فى القرآن لزدته»

قال عبد الرحمن بن الحارث:

– عمر – رحمه الله – كان يود الإبقاء على حكم الآية، مع أنها غير موجودة فى القرآن، فلماذا فى البداية كان معترضا، وبعد ذلك تمسك بحكمها، وود لو يقيدها، لولا خشيته من كلام الناس.

قال عبد الله بن الزبير:

– خشى عمر العمل بهذه الآية، وقت كان الإسلام نبتا أخضر، فترفق بالناس، ولكن لما نمت شجرة الإسلام، وقوى لحاؤها، لم يجد بأسا من التشدد.

قال سعيد بن العاص:

– أو قل هو عمر عاد لطبيعته المتشددة.

قال زيد:

– اذن.. فنحن على ماتم فى الجمع السابق..؟

ردوا جميعا:

– نعم.

[٥]

انسابت فى جوف الليل، كلمات أم خارجة، وهى تهدهد وليد ابنها سعيد:

أحبك والرحمن ** حب قريش لعثمان

أدرك زيد، أن النوم قد جافاها هى الأخرى، وقد أحست بقلقه، فآثرت أن تريح زوجة ابنها، وحملت الوليد عنها. فكر أن يذهب لينام، ليومىء، لها من طرف خفى، أن تستريح. ولكن كيف يفعل، وفكره يضنيه، مخافة أن يكون قد أخطأ، فيما اعتمده الصحابة من إبدال السين بالصاد فى بعض الآيات. وترحم على أم ورقة، لو كانت حية، لراجع معها هذه الآيات، ولتأكد منها كيف سمعتها من أبى القاسم. وأحس بالسخط على غلامها وجاريتها اللذين قتلاها فى خلافة عمر، وأخذ يلوم نفسه: لماذا أفحص الآيات ثانية، وسبق أن فعلنا ذلك فى الجمع الأول، خاصة وكل المطلوب منا، أن نستقر على مصحف يتلى على حرف واحد، بدلا من الأحرف السبعة التى يقرأ بها الآن. ولكن.. لا.. ربما نكون قد سهونا عن شىء.. أو فاتنا شىء.. وماضَرَّ لو فحصنا ثانية. وتذكر عمر، كان كلما روى له أحدهم حديثا عن أبى القاسم، أصر على بينة، أو شهود روايته، ووصل الأمر ببعض الصحابة، أنه كان لايقبل الحديث إلا بعد أن تثبت عنده صحته بالشهادة أو اليمين، فكيف.. وأنا أكتب قرآنا..؟!

استرعى انتباه زيد، اختفاء صوت أم خارجة، رجا أن تكون قد نامت. وحين سمع طرقا على بابه، رجح أنها سكتت تأدبا. جاءه الصوت من خلف الباب، مستأذنا فى الدخول. اهتز جسده، كلما سمع لهجة سعيد بن العاص، الشديدة الشبه بلهجة أبى القاسم، أثارته الذكرى، وترحم على تلك الأيام. صاح زيد:

ـ أدخل ابن العاص.

دخل سعيد بن العاص، سلم، واعتذر عن مجيئه فى هذا الوقت، وقال:

ـ واتتنى فكرة، فلم يغمض لى جفن.

قال زيد فى نفاد صبر:

ـ علىَّ بها.

قال ابن العاص:

ـ كلمة «مسيطر» مثلا، استقر الأمر على كتابتها بالسين. هيكل الكلمة هكذا، لايسمع بقراءتها بالصاد، كما فى قراءة أخرى. نكتبها بالسين، ويعلوها حرف الصاد. وبهذا نسمح بالقراءة الأخرى.

فأكمل له زيد:

ـ واذا كانت كلمة، استقر الأمر على كتابتها بالصاد، وهناك قراءة لها بالسين نكتبها بالصاد وفوقها حرف السين

قال ابن العاص:

ـ وبهذا نحافظ على اختلاف القراءات.. ويظل التيسير قائما.

أطرق زيد مفكرا بعض الوقت. رفع رأسه وقد تهللت أساريره:

ـ حللتها ابن العاص.. لكم أرقنى الأمر.. فنحن لانستهدف من الاستقرار على نسخة من القرآن مكتوبة بلغة واحدة، أن نلغى القراءات المحتملة لبعض الألفاظ..

قال ابن العاص:

ـ بقيت الكلمات المكتوبة بلغات القبائل الأخرى. نود أن نستقر عليها.

قال زيد:

ـ أو على المقابل لها من لغة قريش..

أكمل ابن العاص:

ـ شريطة أن تسمح بقراءة أخرى إن وجدت..

قال زيد:

ـ عافاك الله.. هذا ماأريد أن أقوله، مثل كلمة «فتبينوا» كتبناها بلغة قريش، وسمحت بالقراءة الأخرى «فتثبتوا» دون أن نغير من هيكل الكلمة.

نهض سعيد بن العاص، وقال:

ـ أوشك الليل أن ينتهى. أتركك تصيب شيئا من الراحة.

أوصله زيد إلى باب الدار. وعند عودته، لمح باب حجرة النوار مواربا. وتراءى له ضوء خافت. أدرك أن أم خارجة، وقد أنامت الطفل، تعود

النوار فى مرضها. امتلأت نفسه بالأسى، لأنه لايستطيع شيئا لأمه فى محنتها. وأحس بتقصير، نحو أم خارجة، وتساءل فى نفسه: كيف يمكنني التخفيف عنها، تعبها، وسهرها. ورنت فى أذنيه مقولة ابن العاص «تصيب شينا من الراحة». أى راحة يابن العاص. عافاك الله.
تطلع نحو الأفق. شفق الشمس الأحمر، يتسلل فى غفلة من الظلمة. حانت منه التفاتة إلى الحجرات المطلة على الباحة، لايصدر عنها صوت، وقد هجع من فيها. السماء على وشك الظهور، والعتمة تذوب فى الضوء الوليد.
أخذ شهيقا عميقا، زفره وقال فى نفسه: بعد قليل تطلع شمس الجمعة.. ترى ماذا ينتظرنا..؟

[٦]

ظل زيد أرقا، يلوك فى خاطره، مابلغه، من اختلاف الغلمان مع معلميهم، الذين يحفظونهم القرآن. المعلم يقرأ عليهم الآية، وقد يكون بها كلمة معروفة فى لغة قبيلة كنانة، لايعرفها غلام من قبيلة جرهم وقرأها بمرادف آخر معروف فى لغة قبيلته. فيظن الغلام أن معلمه قد غير فى القرآن. ومايدرى أن أبا القاسم، قد رخص بقراءة القرآن هكذا، حتى تطاوعهم ألسنتهم. فأغلبهم أميون، وفيهم الرجل والمرأة، والغلام والجارية، والشيخ الفانى، الذى لم يقرأ كتابا قط. أما الآن، وقد توحد العرب، وسادت تقريبا لغة قريش، فلا داعى لاختلاف بعض الكلمات، من قراءة لأخرى، والتى أبيحت فى البداية، للتسهيل على الناس.
وانتوى زيد، أن يحث أصحابه، على الإسراع فى العمل، حتى لاتتفاقم الخلافات بين الناس. وإلا لن يكون هناك من عمل لمجالس الفتوى والفقه، إلا النظر فى اختلاف الكتابات.
ومايدرى.. إلا وآذان الجمعة، يتردد.
بعد الصلاة منى النفس، أن يستريح قليلا. ولم يكد يفعل، حتى سمع لغطا

أمام باب حجرته، بين عنقودة وأم خارجة. فهم منه أن عاتكة حضرت لسؤاله، وأم خارجة تود إرجاء الأمر.

نهض زيد وفتح الباب. قال لأم خارجة:

ـ سألقاها.. حتى لايظن الناس، أننى أرجأت الفتوى، لأنى لاأتقاضى عنها أجرا.

ذهب زيد إلى الحجرة، التى يجلس فيها إلى الناس. رحب بضيفته وقال:

ـ ماذا عندك عاتكة..؟

غضت عاتكة ببصرها حياءً، فقال زيد يشجعها على السؤال الذى أتت من أجله:

ـ لاحياء فى السؤال.

قالت عاتكة:

ـ خطبنى الزبير بن العوام

قال زيد:

ـ نِعْمَ الرجل.

قالت عاتكة:

ـ أخشى أن يتقول علىَّ الناس.

قال زيد:

ـ هذا حقك، ولاتخشى فى ذلك لومة أحد.

وقبل أن يسترسل فى الكلام، تذكر يوم تزوجها عمر بن الخطاب. أَوْلَمَ لها، ودعا جمعا من الناس، فيهم على بن أبى طالب.

قال على:

ـ ياأمير المؤمنين، دعنى أكلم عاتكة.

قال عمر:

ـ افعل.

أخذ على الباب بجانب عاتكة. وقال:

ـ ياعُدَيَّة نفسها أين قولك:

فآليت لا تنفك عينى حزينة ** عليك، ولاينفك جلدى أغبرا

فبكت عاتكة وقد تذكرت عبد الله بن أبى بكر. قال عمر:
ــ مادعاك إلى هذا أبا الحسن، كل النساء تفعلن ذلك.
قال على:
ــ قال الله تعالى: «يأيها الذين آمنوا، لم تقولون مالا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون».
وتساءل زيد: أتراها تذكرت ماحدث لها من على بن أبى طالب، وتخشى أن يحدث من غيره، خاصة وقد رثت عمر بقولها:

عيـن جُودى بعبرة ونحيـــــب ** لاتملّى على الإمام النحيـــب
قل لأهل الضراء والبؤس: موتوا ** قد سقته المنون كأس شعوب

قال زيد:
ــ لايُلام الإنسان، لأنه عبر عن حزنه
قالت عاتكة:
ــ جزاك الله كل خير.. بقى أمر آخر
قال زيد:
ــ هاته.
قالت عاتكة:
ــ أريد أن أشترط على الزبير، كما اشترطت على عمر.
وتذكر زيد أنها اشترطت على عمر، ألا يمنعها من الصلاة فى المسجد، وألا يضربها، فأجابها لما طلبت، وهو كاره.
قال زيد:
ــ لك هذا
قالت عاتكة:
ــ عافاك الله.. هلا أبلغته.. فإنى أجد حرجا أن أفعل.
أدرك زيد، أنها تلمح إلى عبد الله بن الزبير، الذى يحضر مجلسه، ليكون واسطتها الى أبيه.
تبسم وقال:
ــ لك ماتريدين.

أخذ سمرة بنصيحة زيد. امتنع عن كتابة الآيات، حتى يستقروا على كتابة واحدة. وعندما لحظ قلة المترددين على دكانه، فكر أن يشغل وقته فى إعداد مزيد من الورق، فسوف يحتاج منه كمية كبيرة، فى الأيام القادمة.

انشرحت نفسه، حين تذكر بشاشة زيد، وهو يغادر دكانه. كان قد أخبره، أنه اعتزم أن يخصص يوما، فى الأسبوع، يكتب فيه الآيات، لمن يطلبها، دون مقابل. ندت عن زيد صيحة استحسان. كاد سَمُرة أن ينسب الفضل لعنقودة، لكنه أمسك.

تذكر نقاشه مع عنقودة. أعلمها أن زيداً لم يقنع، عندما ساوى له بين عمله وعمل صانع المنابر، قالت عنقودة:

ـ صناعة المنابر شىء.. والكتابة شىء آخر، خاصة إذا كانت كتابة القرآن.

واقترحت عليه، أن يفعل مثل زيد. فهو يخصص يوم راحته الأسبوعية، للفتوى، دون مقابل. فلماذا لايخصص يوما يكتب فيه لمن يريد، دون مقابل..؟!

تفكر سمرة فى الأمر. وجدها فكرة جيدة، تجمع بين العمل وخدمة الناس. لكنه أفهم عنقودة، أنه لن يفعل هذا فى يوم الجمعة، بل سيقتطع يوما من أيام العمل.

أحس سمرة، بتأنيب فى نفسه، لأنه لم يذكر فضل عنقودة، لزيد. وعجب من إحساسه، فى ذات الوقت، بعدم راحة، لأنها أشارت عليه. وتساءل: هل ينبع عدم الراحة، لأن الفتاة تفوقت عليه، وتوصلت لحل، أرضاه وأرضى زيدا. ولم يستطع هو، مع أنه فكر فى الأمر كثيرا.

أم تراها رواسب الصبى، عندما كانت عنقودة، دائما، سباقة، لماحة، الأمر الذى كان يغيظ خارجة.

لماذا أشعر بالحرج..؟!

وأخذ يكرر: لماذا.. لماذا..؟!

وتذكر، مايتناقله الرواه، حين أراد أبو القاسم وصحبه، أن يعتمروا، أحرموا، وساقوا بعض الشياه، فى الطريق إلى الكعبة. لكن أهل مكة أرسلوا يمنعونهم من دخولها. واتفق الجانبان، أن يعود أبو القاسم وصحبه، فى العام التالى، ليعتمروا، بعد أن يخلى لهم مكة أهلها.

وافق أبو القاسم على هذا الاتفاق. ولكن كَبُر على أصحابه، أن يُرَدوا عن العمرة.

دخل أبو القاسم حجرته حزينا، لأن أصحابه، لايريدون تنفيذ مااتفق عليه.

دخلت عليه زوجه أم سلمة حجرته، وقالت:

- قم أنت وتحلل من إحرامك، بذبح شاة، فإذا رآك أصحابك، فعلوا مثلك، وينتهى الأمر. فلما فعل، أقبل أصحابه، وفعلوا مثله، وعادوا معه الى المدينة.

تساءل سمرة: لم يجد أبو القاسم حرجا، فى الأخذ برأى امراة، فلماذا أجد حرجا أنا..؟!

(٨)

سارت عنقودة فى شمس الضحى، مرت بالسوق على عجل. ودت لو تتمهل، لترى المعروض، من أثواب حريرية، ودهانات، وعطور. ولكن عليها أن تلحق فضة النوبية، قبل أن تخرج، لشراء مايلزم بيتها.

وتساءلت: لماذا يود زيد، سماع القصة من فضة، وسبق وسمعها من على وفاطمة. هل هو اليقين كما يقول، أى يقين أكثر من على، ابن عم النبى، وفاطمة زوجته، وبنت النبى.

تعرف رد زيد: فضة النوبية، حقا جارتيهما، وتعيش معهما، ولكنها غريبة، والغريب يرى، ويسمع، ويحفظ أكثر.

هل ستحفظ فضة أكثر من على، أم هو القدر يعاندنى، فلا تنتهون من مراجعة القرآن بسرعة، ويتأخر زواجى من سمرة. حقا لم يطلب منى أحد الانتظار. ولكن أى فتاة فى مكانى، ألم تكن تفعل مثلما أفعل..؟!

وأخذت تتلو فى سرها «يعرفون بالنذر، ويخافون يوما كان شره مستطيرا. ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا»

وتذكرت تنبيه زيد، أن تمر على ابن عباس، أثناء عودتها، ليسمع القصة معهم، من فضة النوبية. ولم يبال بدهشتها، لأن ابن عباس سبق وسمع القصة من على، وأفهمها أن فضة شريكة فى المناسبة، التى نزل بشأنها القرآن، وسماعها، يفيده، كما يفيدنى، إذا سألنا أحد، تفسير هذا القرآن.

غذت عنقودة السير. راجية أن تلقى فضة، وتعود معها، وتروى حكايتها، كما رواها على وفاطمة. فلو اختلفت فى كلمة عنهما، سيظل زيد وجلساؤه، يسألون، حتى يتيقنوا من الحكاية. وتذكرت، اقتراح عبد الرحمن بن الحارث، بعد أن سمعوا عليا، أن يكتفوا بذلك، ولاداعى لاستدعاء فاطمة، فهى أم، ترعى عيالا، وقد تتكبد مشقة فى الحضور والإياب. هم ابن عباس، وكان حاضرا، بالرد، وسعيد بن العاص، ولكن زيدا، استمهلهما بإشارة من يده وقال: أى قصة حمالة أوجه ياابن الحارث، وإذا رواها أكثر من شخص اتضحت حقيقتها، وتجسدت أمامنا، حتى نكاد نراها رؤى العين، ونلمسها بأيدينا. عندها استحسن الحاضرون المقال، وأثنى عليه ابن الحارث.

وحاولت عنقودة إقناع نفسها، بالتمهل، فربما كان أهل بيت على بن أبى طالب، مازالوا نائمين. وسرعان ماردت:

متى كان آل على، يغطون فى النوم حتى الضحى..؟!

واستمرت تحدث نفسها: هم يستحسنون المقال، وأنت تسعين الى البيوت، ولاتستطيعين التمهل لشراء زجاجة عطر. ترى.. هل يحضر سمرة اليوم..؟

وأحست، فجأة، بالإشفاق على فضة. سوف تتكلم أمام زيد وابن العاص وباقى الجلساء. هل تثبت أمامهم، مثل فاطمة، أم يرتج عليها القول.

لم تبدأ فاطمة الحديث، عن نفسها، أو عن زوجها على. بل بدأت بالحديث عن فضة النوبية. فحين مرض ولداها الحسن والحسين، قالت فضة:

- ان برأ سيداي، صمت لله عز وجل شكرا.
وكان على وفاطمة، قد نذرا صوما، ثلاثة أيام إن شفى الولدان.
وشفى الولدان، ولم يكن عند على، مايطعم أهل بيته.
ذهب على، إلى شمعون الخيبرى واقترض منه ثلاثة أصع من الشعير.
وشمرت فاطمة عن ساعديها، وتناولت صاعا من الشعير، طحنته وخبزته، تساعدها فضة.
وحين جلسوا جميعا، لتناول الفطور، بعد صلاة المغرب، طرق الباب. أمر على:
- افتحى فضة.
فتحت الباب، وقالت:
- رجل بالباب
سأل على:
- ماخطبك يارجل..؟
قال الرجل:
- السلام عليكم أهل بيت النبى. مسكين من أولاد المسلمين. أطعمونى أطعمكم الله على موائد الجنة.
نظر علىٌ إلى المجتمعين حول الطعام. وكأنما استشعروا ماهو مقدم عليه، فلم يبد أحدهم،ماينم عن اعتراضه. قال على:
- أعطوه الطعام.
ومكثوا طوال ليلتهم دون طعام، مكتفين بالماء.
وفى اليوم التالى، صاموا أيضا، وقامت فاطمة، وفضة، وطحنتا صاع الشعير الثانى، وخبزتاه.
وبعد آذان المغرب، حين جلسوا لتناول فطورهم، طرق الباب. نهضت فضة. فتحت الباب وقالت:
- رجل بالباب.
سأل على:

ــ ماشأنك يارجل.
قال الرجل:
ــ السلام عليكم أهل بيت النبى. يتيم من أولاد المهاجرين، استشهد والداى. أطعمونى.
رق علىٌّ للرجل، ونظر إلى وجوه أهل بيته، وأدرك أنهم قدروا ماهو مقدم عليه، ومع ذلك لم تبد على وجه أحدهم، علامة اعتراض. أمر بإعطاء الطعام للرجل، وباتوا ليلتهم دون طعام.
وفى اليوم الثالث، قامت فاطمة، تساعدها فضة، إلى الصاع الثالث. طحنتاه وخبزتاه. وعند الجلوس إلى الطعام، طرق الباب. نهضت فضة وفتحت الباب. قال الطارق:
ــ السلام عليكم أهل بيت النبوة. تأسروننا، وتشدوننا، ولاتطعموننا. أطعمونى فإنى أسير.
حزن على لمنظر الرجل. ودون أن ينظر لأهل بيته، أمر بإعطاء الطعام للأسير. ولسان حاله يقول:
على الأقل نحن أحرار.
وتصادف أن مر بهم أبو القاسم، ولمس مابهم من جوع.
وجاء بسببهم قرآن: «ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا» ورددت عنقودة:
ويطعمون السائل، رغم جوعهم وشدة حاجتهم. أتراك توافقنى على هذا التفسير ياابن عباس.
ابتسمت، وسخرت من نفسها. هل أصبحت مفسرة ياعنقودة..؟!

[٩]

واربت عنقودة الباب. أطلت بحذر. وهى تنسحب، سألتها النوار، بصوت واهن، عما تريد:
قالت عنقودة:

ــ يسأل أبى زيد، عن لغة بعض الكلمات، ولكن.. لاداعى الآن إذا كنت متعبة.
أشارت لها النوار، فاقتربت. اتكأت على ذراعها الأيمن. وتمكنت من الجلوس.
قالت عنقودة:
ــ «السفهاء» من سورة البقرة، «الرجز» من سورة المدثر.
«سفاهة» من سورة الأعراف
تفكرت النوار بصوت عال:
ــ السفهاء.. السفهاء.. أظنها بلغة كنانة.
سفاهة.. سفاهة.. بلغة حمير. ماهى الكلمة الأخرى..؟
ردت عنقودة:
ــ «الرجز»
حطت النوار يدها على رأسها. قطبت جبينها وقالت:
ــ عقلى عصانى.
وعنقودة تغادر، لحق بها نداؤها:
ــ انتظرى.. تذكرت.. الرجز.. أظنها تعنى العذاب.. وهى فيما أذكر بلغة هذيل
سألت عنقودة:
ــ وهذه الكلمات شائعة..؟
أطرقت النوار قليلا، وأضافت:
ــ والجميع يعرفونها.. سواء فى قبيلة قريش، أو فى غيرها.
غادرتها عنقودة. أحست النوار بوهن فى جسدها، ولكن بدا أن النوم جافاها. وتساءلت: هل يمد الله فى عمرى حتى أطمئن عليك فى بيت زوجك، عنقودة، وحتى أطمئن على إتمام ولدى زيد لما يقوم به.
وتراءى لها زيد، صبيا لم يكد يتخطى الثالثة عشرة، السيف أطول منه. ويصر على الاشتراك مع أقرانه فى القتال. ولكن أبا القاسم يردهم واعداً إياهم بغزوة أخرى. ساعتها أبى زيد أن يعود دون أن يفعل شيئا.
أسر لى أن أخبره أنه يحفظ سبع عشرة سورة من القرآن.

ولست أدرى، لماذا استجبت له. ومن أدرانى أن مصيره، قد تقرر فى هذه الساعة. وأن القرآن، سيظل شاغله، حتى آخر العمر. أبديت رغبته، وبالفعل سمعه أبو القاسم، وأعجب به وهو يسمع الكلمات البينات على لسانه، ويرى تأثره بما يقرأ، فعرف أنه يعى معنى الكلمات. طلب منه أن يتعلم العبرية لغة اليهود، وجعله يلازم رسول كسرى سبع عشرة ليلة، حتى تعلم منه السريانية، وبعدها أصبح يترجم الرسائل التى تصله، ويكتب مايُملى عليه بالعربية.

ووقتها استكانت نفس الأم قليلا، وقد ظنت أنه بمنأى عن القتال. وياله من ظن.. فلم يكد يأتى يوم أُحد.. حتى تقدم مع أقرانه للاشتراك فى القتال. حمل قرينة، رافع بن خديج، حربة، لوحها بيمينه وقال لأبى القاسم:

ـ انى أجيد الرَمىّ.. فاذن لى.

أذن له. وتقدم صديقه سَمُرَةَ بن جندب، وأخذ يلوح حربة بذراعيه المفتولين، وقال بعض أهله:

ـ سمرة يصرع رافعا

أذن له.

وتساءلت النوار، أتراك يازيد أحببت سمرة لأنه، على اسم صديقك، الذى قدرت خصاله، وأحببته، أم لأنك ترى فيه صباك، وصبى ابن جندب.

وبقى يومها أربعة من الأشبال، معك ياولدى ومع عبد الله بن عمر. لم يجدكم استعراض عضلات أجسادكم الغضة. وإن لم تخننى ذاكرتى، فلم تكن بلغت الخامسة عشرة بعد.

واستكانت نفس الأم ثانية.. حقا هى تسر إذا رأت ابنها فارساً ولكنها فى الوقت نفسه تشفق عليه من مغبة القتال..

وظل زيد على مثابرته، حتى سُمح له بالاشتراك فى غزوة الخندق، فحمل التراب مع الرجال من مكان إلى آخر.

ولكن.. هل قنعت ياولدى بهذا الدور، أبدا.. حتى سُمح لك بالقتال . فى

يوم تبوك وكانت راية بنى مالك بن النجار مع عمارة بن حزم. أخذها أبو القاسم ودفع بها إليك ياولدى. قال عمارة، مخاطبا أبا القاسم:

ـ بلغك عنى شيء.

قال أبو القاسم:

ـ لا.. ولكن القرآن مقدم، وزيد أكثر أخذاً للقرآن منك.

انتزعتها من أفكارها، طرقات على الباب. قالت فى نفسها، كلمات أخرى..؟!

ستظل مؤرقا ياولدى، حتى تستوثق بكل كلمة.. وحتى تستقروا على مصحف واحد.

هل أنا السبب فيما تعانيه من تعب، يوم استجبت لك، ولكن ماذنبى وقد أعجب أبو القاسم بحفظك للقرآن، ولمس روحك المتوثبة.

تنهدت النوار، وقالت:

ـ ادخلى.

استأذنتها عنقودة فى دخول عاتكة ورفيدة. قالت النوار:

ـ بل خذينى إليهما.

ساندتها عنقودة، إلى ظل نخلة، فى باحة الدار، وأجلستها، وجاءت عاتكة ورفيدة.

قالت عاتكة:

ـ مباركة قومتك

ردت النوار:

ـ كيف يطيب لى رقاد..؟!

أدركت رفيدة ماترمى إليه. قالت:

ـ عما قريب ينتهى زيد وصحابته.. ونسأل الله أن يمن عليك بالشفاء.

استأذنت عنقودة فى الانصراف، لتعد حاجة الدار من الطعام. تنهدت النوار، وتتبعتها بنظراتها المشفقة. لحظت عاتكة، فقالت:

ـ عما قريب، تطمئنين عليها.

قالت النوار وهى تعانى، اخراج الكلمات من حلقها:

ـ طرح الحياة لاينتهى، لو انتظرت كل فتاة، حتى ينتهى الطرح، ويهدأ البال فلن يتزوج أحد.

قالت عاتكة:

ـ علينا أن ندق أوتاد خيمتنا، مهما كان عنف الريح، ومهما أثارته من زوابع.

استأذنت عاتكة ورفيدة، فى الانصراف، على أن تعوداها فى الغد. وحين هما بمساندتها، إلى حجرتها. رجتهما أن يتركاها تنعم بالهواء الرواح، وسوف تتولى عنقودة ذلك.

وسرحت النوار فى جلستها: لكم تمنيت عنقودة زوجة لخارجة. ولكن الفتاة وماتهوى.

وكم نهانى زيد، عن مجرد التلميح بذلك أمامها. خشية أن نضطرها لما لاتحب ولا ترضى. وخشية أن يدفعها، إحساسها بالجميل نحونا، لأننا ربيناها، لتجاهل عاطفتها، وإرضائنا.

لمس زيد، صدق عاطفتها نحو سمرة، فلم يشأ لخارجة أن يقف فى طريقها، ودائما يذكره أنها بمثابة شقيقة له، خاصة وقد تبين أيضا، عاطفة سمرة نحو عنقودة. لم يقف فى طريقه، وذكر لى ماحدث من أبى بكر تجاه ولده عبد الله، عندما أحب عاتكة، وملكت عليه نفسه، بحسنها وجمالها، وخشى أبو بكر أن تشغله عن أمور حياته، فأمره بطلاقها، فاستجاب لأمر أبيه. وسمعه مرة، أبو بكر، يقول:

أعاتك، قلبى كل يوم وليلـــة ** إليك بما تُخفى النفوس معلـــق
ولم أر مثلى طَلَّق اليوم مثلــها ** ولامثلها فى غير جُرم تطلـــق
لها خلق جزل، ورأى ومنصب ** وخلق سوى فى الحياء ومصدق

رق أبو بكر له، وأمره بردها.

وكثيرا ماردد زيد: لا.. لن نجعل سمرة يتخلى عن حبه، أو نصرف عنقودة عمن تحب.

سُر زيد، لما سمعه فى مجلس عثمان. أثنوا على سمرة، لكتابته أوراقا لأصحاب الحاجات. فقد سهل لهم الأمر. وربما لولاه لأحجم بعضهم، حياءً، واتقاءً، لذل السؤال.

وارتاحت نفس زيد الذى كان يخشى، أن تكون استجابة سمرة، لطلبه تخصيص يوم لأصحاب الحاجات، زلفى ليزوجه من عنقودة، أو بتأثير من مهابته له. زيد موقن الآن أن طلبه وقع موقع الرضا من نفس سمرة، وأنه عمل بسماحة، فكتب لمن سأله، وحاز ثناء صحابة عثمان.

عزم زيد، على زيارة سمرة، بعد صلاة العصر، ليتفقد أحواله، وينقل إليه ثناء الناس على عمله، ويستزيده، مما رواه ابن حذيفة لعثمان، إن كان له به معرفة.

خلا زيد إلى نفسه بمسجد النبى، قبل الصلاة بوقت طويل، يفكر فى هدأة المسجد، فيما يقومون به.

أحس بعدم راحة، لاضطرارهم، أحيانا، لاستبدال كلمة غير معروفة، لكافة العرب، بإحدى القراءات، بكلمة من لغة قريش معروفة للكافة. وكان ماحيره أن الكلمة المتروكة قرآن أيضا، فهل يجوز تركها. لو أراد القرآن ذلك، لذكر فى إحدى آياته، ولو أراد أبو القاسم لأوصى بما نفعله.

فهل مانقوم به صوابا..؟!

وتذكر ماحدث من عمر بن الخطاب، حين سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان، وبها كلمات، لم يسمعها، حين قرأها عليه أبو القاسم. أمسك عمر بالرجل، وذهب به إلى أبى القاسم. وأبلغه بما سمعه منه، فطلب أبو القاسم من الرجل أن يقرأ عليه، فلما فعل، قال: هكذا أُنزلت.

فلما أخبره عمر أنه سمعها منه على نحو مخالف، أبلغه، أن هكذا أُنزلت أيضا، وأفهمه «أن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ماتيسر منه».

وتساءل زيد فى نفسه: لو تركنا هذه الأحرف يقرأون بها، فسوف تتكرر حادثة عمر كثيرا، بين الناس، ولكن لمن يحتكمون، وقد رحل عنا أبو القاسم..؟!
اذن فلن يجانبنا الصواب، حين نستقر على نسخة واحدة من القرآن، مكتوبة بلغة واحدة، يستطيع الناس الرجوع إليها.
اطمأنت نفس زيد قليلا، وأخذ يستعيد الكلمات، التى راجعوها بالأمس، ولم يختلفوا بشأنها، مع أنها ليست من لغة قريش.
«شرذمة» من سورة الشعراء، بلغة جرهم، «شططا» من سورة الكهف بلغة خثعم، «دمرنا» من سورة الأعراف بلغة حضرموت، «إملاق» من سورة الأنعام بلغة لخم، «بغيا» من سورة البقرة بلغة تميم.
وسرعان ماجرى فى فكره، مادار بينهم من حوار.
كان زيد قد قال:
ــ هذه الكلمات ترددت على ألسنة الناس، لكن.. مارأيكم فى كلمة «تخوف» من سورة النحل، «أو يأخذهم على تخوف فإن ربك لرءوف رحيم»
قال سعيد بن العاص:
ــ من لغة هذيل، وقد استخدمها الشاعر بمعنى التنقص
تخوف الرجل منها تامِكا قَرِدًا ** كما تخوف عِود النبعة السفن
وعقب ابن هشام:
تردد الشعر على ألسنة الناس، لن يجعل المعنى يغيب عنهم.
قال زيد:
ــ كلمة «الوسيلة» من سورة المائدة: «ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون»
قال سعيد بن العاص:
ــ استخدمها عنترة بمعنى الحاجة:
إن الرجال لهم إليك وسيلة ** إن يأخذوك تكحلى وتخضبى
وعاود زيد القلق ثانية حين تذكر قراءتين لآية واحدة: «إن ناشئة الليل

هى أشد وطأ وأصوب قيلا» و «إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقيم قيلا» واضطرارهما للاستقرار على قراءة واحدة، وخشى أن يكون الصواب قد جانبهم. وهدأت نفسه، حين تذكر مقولة ابن العاص:
ـ لاتبتئس زيد، ليس فى قراءة أحد اللفظين «أصوب» أو «أقوم» تبديل آية رحمة بآية عذاب، فاللفظان وإن كانا غير متماثلين فى القراءة، فهما متماثلان في المعنى.
وأردف ابن هشام:
ـ ونحن لانأتى بألفاظ من عندنا، ولكننا نستقر على لفظ من الألفاظ التى وقعت فيها الإباحة، برخصة من أبى القاسم، ليسهل على الناس.
وعاد قلق، غير قليل، يتسكع فى رأس زيد، أن يكون اللفظ المتروك، أيسر على الناس، فى حكم، أو فى تفسير آية، وان كان معناه أو استعماله غير شائع، من اللفظ الذى استقروا عليه، وان كان معناه أو استعماله شائعا. وعصفت الحيرة بزيد، وتساءل: لنفرض أن أحدهم، فى أرض لانعرفها، أخذ بالأيسر له، فكيف نبلغه بالقراءة الجديدة..؟!
هون الأمر على نفسه، حين تذكر آية من سورة المائدة: «ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته». اذن ابو القاسم ليس مكلفا بالإبلاغ، وإلا كان عليه، مقابلة كل فرد فى الدول والممالك، ليتأكد أن رسالته قد وصلت إليه، ولكنه مكلف بالبلاغ فقط، أى بإذاعة رسالته على الناس، دون التأكد هل وصلت إلى كل فرد أم لا. فلماذا نأخذ أنفسنا بالشدة. علينا أن نقوم بما كلفنا به، ونذيعه بين الناس، ومع الزمن يتواتر، ويتناقله الرواة، ويبلغ الدانى القاصى.
وعاد زيد يردد فى نفسه: ولكن.. كيف نحكم أنفسنا فى كلمات الله
وحين أمضه الأمر، قام لساعته وقصد دار سعيد بن العاص. لحظ سعيد جهامته، فابتدره ليخفف عنه:

ـ أتراك حضرت، لتقرأ علينا آيات الزجر والوعيد، وذكر الموت والبعث، فتبكى وتبكينا معك.
رد زيد:
ـ سامحك الله ياابن العاص.. أتظننى جئت الساعة لأبكيك
قال سعيد ضاحكا:
ـ اذن هات مايشقيك..
عادت لزيد، روحه المرحة، وقال:
ـ جئت أولا طامعا فى شرابك وفاكهتك
قال سعيد بن العاص:
ـ أما الفاكهة فهى لك.. وأما الشراب.. فليس قبل أن يعيننا الله، ونذهب بما كدرك.
قال زيد:
ـ والله ماطمعت إلا فى فاكهة فكرك.
انفرجت أسارير ابن العاص، وقال:
ـ لك الفاكهتان ياابن ثابت.
قال زيد:
ـ كيف نحكم أنفسنا فى كلمات الله، وبعضهم يردد مقولة ان الحكم إلا لله.
قال ابن العاص:
ـ يقول الله: «يأيها الذين آمنوا، لاتقتلوا الصيد وأنتم حُرُم، ومن قتله منكم متعمدا فجزاءٌ مثل ماقتل من النعم يحكم به ذوو عَدْل منكم»
فقل لى ياابن ثابت، يرحمك الله، أتحكيم رجال، فى الاستقرار على كلمات تمنع الخلاف والفرقة، وقد تؤدى الى الاقتتال، أحق وأولى، أم تحكيمهم فى أرنب ثمنها درهم.
ردد فى نفسه: صدقت ياابن العاص..
تناول شرابه وأسرع ليلحق صلاة الجماعة بالمسجد.

انتهت صلاة العصر. وماأن هم زيد بالخروج، حتى وجد سمرة لصق كتفه.
لم يدهش لرؤيته، قدر دهشته، رؤية لحية صغيرة، أسفل ذقنه، أضفت عليه ملامح رجولة مبكرة، واكسبت وجهه الأسمر، بحاجبيه الأسودين العريضين، وقارا جعله أكبر من سنه.
هش له، فشع الرضا من عينى سمرة السوداوين. قال زيد:
ـ كنت فى طريقى إليك.
رد سمرة:
ـ وبى شوق للسماع منك.
تركا المسجد. أوليا ظهريهما للبقيع. وسارا صامتين.
فكر سمرة: هل يوافق الآن، على زواجى من عنقودة، أم يرجىء الأمر، حتى يتموا كتابة المصحف الواحد..؟!
وفكر زيد: أتراك تعرف تفصيلا ياسمرة، عما حكاه حذيفة بن اليمان لعثمان، فتزيدنى معرفة، ربما رَسخت اليقين فى داخلى، أن مانفعله صوابا. سوف تأتى أقوام من بعدنا، ولن تجد بين أيديها سوى مصحف واحد.. فماذا سيكون حكمها علينا..؟!
قادتهما أقدامهما إلى الخلاء، كأنما ليجلوا أفكارهما. لمحا أعرابيا، يجلس أمام خيمته. وغير بعيد منه كرمة يداعب الهواء أوراقها الخضراء.. وقد تدلت عناقيدها.. تارة تنال منها الأوراق، وتارة تنصرف عنها.
اتجهت أقدامهما إليه، دون اتفاق. قال زيد:
ـ ماذا عندك لضيفين أخا العرب..؟
رد الرجل:
ـ للضّيفان أفضل ماعندنا..
قال زيد:

ـ بوركت يأخا العرب
جلسا خلف الخيمة، وقد افترشت الأرض، غير بعيد منها، أشعة شمس العصارى الهينة، وداعبت أعطافهما رياح شمالية طرية. قال سمرة:
ـ تعلم عمى.. أننى انتظرت طويلا..
لم يفاجأ زيد، ببدء الحديث، من وجهة، غير التى أرادها، وقال:
ـ أملك محقق بإذن الله.
انبسطت أسارير سمرة، وزايله بعض اضطرابه. واستمر زيد:
ـ لم نرجىء الأمر. لانشغالنا. فالمشاغل لاتنتهى ياولدى.
عقب سمرة:
ـ قلت هذا لعنقودة مرارا
قال زيد:
ـ أرجأنا الأمر.. حتى يخضر ذقنك، ويتغضن جلدك.
ابتسم سمرة، ومنعه الحياء من التطلع إليه، وقد أدرك أنه يشير، إلى اشتراكه فى المعارك. وجاهد، ليدارى، زهوا خفيفا، أحس به.
وجدا الأعرابى أمامهما، دون أن يحسا بوقع خطواته. حمدا له أنه لايريد قطع حديثهما. وضع أمامهما إناءين من الفخار، مصقولين من الداخل، وبلون الزبيب، أحدهما به تمر. والآخر به عنب بلون العقيق.
سأل سمرة:
ـ متى نتم الأمر..؟
رد زيد وكأنه لم يسمع سؤاله:
ـ ولم نشأ أن نعجل بزواج عنقودة، وهى غضة.
لحظ عنقودا من العنب، بعض حباته صغيرة خضراء، جامدة، وكثير من براعمه لم تفصح عما تضمره بعد. تناوله ولوح به أمام عينى سمرة، وقال:
ـ لماذا قطافه.
رد سمرة:
ـ الحق فى جانبك عمى.

ضحك زيد وقال:
ـ الحق فى جانبى الآن.. ومنذ عدة سنوات، لم تكن تطيق صبرا..
ضحك سمرة، ودارى خجله، أن مد يده إلى طبق الفاكهة.. انتقى عنقودا من العنب، أحمر، ناضجا، حباته نضيدة. رفعه بحذاء صدره. هم بإعطائه زيدا، لكن يده ظلت محتفظة به.
تبسم زيد. تناول تمرة. لفظ نواتها، وقال:
ـ وخشينا إن عجلنا بزواجها، أن يقر فى نفسها. أننا نخلص منها، إشفاقا من نفقتها.
قال سمرة:
ـ شيء كهذا، لايمكن أن يدور فى خلدها
قال زيد:
ـ يدور عند الضيق، أو الغضب.. أما الآن.. فليتها تظن. أننا نود الخلاص منها.. فلن نجد لها أفضل ممن شارك فى نصر نهاوند والمدائن والقادسية. وشارك مع حذيفة فى إعمار الكوفة. وسوف تدرك أننا نروم سعادتها.
اختلج صدر سمرة، وقال:
ـ اذن.. موافق عمى.
قال زيد:
ـ على بركة الله.
لاحت غمامة خفيفة فى عينى سمرة، وسأل فى خفوت:
ـ وماأنتم فيه..؟!
رد زيد:
ـ قاربنا الانتهاء.. ولن تتوقف الحياة، حتى ينهى كل إنسان مايعمله..
امتلأت جوانح سمرة بالفرحة. ود لو ينهض ويحتضن زيدا. عَقَل بصعوبة، جيشان عواطفه، وسأل:
ـ متى..؟

رد زيد:
ـ حالما تنتهى من تجهيز بيت لكما.
أسرع سمرة قائلا:
ـ غدا، يكون جاهزا بإذن الله.
قال زيد:
ـ قل لى ياسمرة..
دق قلب سمرة بسرعة. ظن فى الأمر، إرجاءً آخر، أو شرطا لايقدر عليه. قال وقد تراخت أصابعه، فسقط العنقود من يده:
ـ نعم
قال زيد:
ـ سمعت بحديث حذيفة لعثمان
استرد سمرة، عنقوده، وانتظمت أنفاسه، وأومأ برأسه بالإيجاب. فقال زيد:
ـ فَصِّل لى الأمر
قبل أن يهم سمرة بالكلام، قال زيد:
ـ ليس شكا فيما قاله حذيفة.
أكمل سمرة:
ـ لكن ليطمئن قلبك
قال زيد:
ـ بوركت من فتى.. ولأنعم باليقين
تفكر سمرة قليلا. لم يجد فائدة من قص تفصيل الخلاف الذى لمسه حذيفة بين جند الشام وجند الكوفة، فى قراءة القرآن، وكاد يؤدى إلى عراك بينهما. جند الشام يقرأون فى مصحف أبى وجند الكوفة يقرأون فى مصحف ابن مسعود. المصحفان مختلفان فى ترتيب السور وفى بعض الكلمات. جاءت فى مصحف بلغة قبيلة، وفى المصحف الآخر بلغة قبيلة أخرى، وكل فريق يزعم أن قرآنه هو الصحيح، ويتهم الآخر.

اذن فلأوضح له المسألة، ليرسخ عنده اليقين، بصحة مايفعل. قال سمرة:
— كنا نستعد للقتال يوم القادسية. رستم قائد الفرس فى مئة ألف فارس. وسعد بن أبى وقاص، قائدنا، فى ثلاثين ألف فارس. نزل سعد إلى الجيش، ظهرا، رغم مرضه. صاح: الله أكبر. أربعا. وخطب، مستهلا بآية من القرآن: «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون». خطب سعد، وصعد إلى شرفة الدار، التى كان يتخذها مقرا لقيادته. ولما كانت الدمامل تملأ جسده، ولم يكن يستطيع الجلوس، فقد اتكأ بصدره فوق وسادة، على حافة الشرفة وبابها مفتوح. وأى اختراق من الفرس لصفوفنا، يسقطه فى أيديهم. وسعد يصيح، رغم ألمه ومرضه:
— تقدموا صوب الميمنة.. سدوا ثغرات الميسرة.. اهجم ياقعقاع.. اتبعهم ياجرير.. تقدموا ياأصحاب محمد.
تمهل سمرة، نظر فى عينى زيد، وقال بتؤدة:
— ماذا.. لو لم يتقدم أصحاب محمد..؟!
لم ينتظر جوابا، ورد على تساؤله:
— ماذا لو كانت الميمنة من جيش الشام على مصحف أُبى. والميسرة على مصحف ابن مسعود وتظنها محرفةً فى القرآن. وترى أن من حَرَّف فى القرآن فهو كافر. ألن يتقاعسوا عن نجدتهم.. حتى يقضى عليهم الفرس. ثم يفعل الله مايشاء.
أسرع زيد بالقول:
— اذن لانهزم جيش العرب.
رد سمرة:
— هو ذاك.. وحذيفة على صواب فيما اقترحه.
أطرق زيد مفكرا، يقلب الأمر على وجوه مختلفة. وأراد سمرة أن يساعده، على سرعة إدراك الأمر، فقال:
— بعد القادسية، طاردنا الفرس حتى نهاوند، ثم الى المدائن، التى أسرعوا

اليها ليحموا عرش ملكهم كسرى. كيف نقتحم المدائن، وبيننا وبينها نهر دجلة. ومرور الوقت فى صالحهم، لمزيد من الاستعداد والتحصين.
أمر سعد بالبحث عن مخاضة فى النهر. عثرنا على مكان، لايخلو عبوره من مخاطرة كبرى. ولكن، لم يكن بدٌ من ذلك. وفكر القائد. قبل عبور الجيش، لابد من تأمين مكان على الضفة الأخرى، حتى لاينتهز الفرس الفرصة، ويضربون الجيش، أثناء عبوره المخاضة. أرسل القائد كتيبتين، نجحتا فى الاستيلاء، على جزء من الضفة الأخرى، يكفى لتأمين عبور الجيش. الكتيبة الأولى أطلقوا عليها «الأهوال» من شدة ماقاساته وهى تعبر. وكان عليها عاصم بن عمرو والكتيبة الأخرى أسموها، «الخرساء»، وأصدقك القول، لاأدرى لماذا أسموها كذلك. وكان عليها القعقاع بن عمرو.
تمهل سمرة فى الحديث، وتساءل:
ــ ماذا لو كان عاصم وعمرو على مصحف ابن مسعود.. وطليعة الجيش العابر على مصحف أبى.
رفع زيد رأسه، وقال ببطء:
ــ اذن.. لجرت الدماء.. مجرى الماء.. فى دجلة.
نهضا، وشكرا الأعرابى، على كرم ضيافته. ظاهرتهما أشعة الشمس الغاربة وقد زادت طراوة الهواء، وتخللت جوانحهما. وحين سلم زيد مودعا، انتقل إلى سَمُرة إحساسه بالراحة فاغتبطت نفسه..
حث زيد الخطى.. وقال لنفسه فجأة.. يالغفلتك يازيد..
لم تنقل إلى الفتى ثناء جلساء عثمان.

[١٢]

كانت النوار تعلم، من ليال سابقة، أن الجلسة قد تطول. لذلك جهزت إناءً آخر، به زيت وفتيل. وحين لفظ فتيلهم أنفاسه، فإذا بالنوار، تهل بسراجها، تضىء وجوههم، وتعيد لأجسامهم معالمها. قال عبد الرحمن بن هشام:

ـ «يايحيى». و «الضحى» هل ستكونان بالفتح أم بالإمالة.

قال عبد الله بن الزبير:

ـ تكونان بالفتح، لغة أهل الحجاز، التى جاء بها القرآن إلا قليلا.. فلا داعى لأن نميل بالفتح نحو الكسر وبالألف نحو الياء.. ولكن تجوز القراءة بالإمالة، لغة بنى سعد ونجد وتميم وأسد.

قال عبد الرحمن بن هشام فى نفسه: دائما أنت حجة ياابن العوام، حتى مولدك على مشارف المدينة كان حجة، رأيت الدنيا، فى الوقت الذى نزل فيه المهاجرون أرض المدينة، وفى الوقت الذى أشاع فيه اليهود أن كهنتهم سحروا المسلمين، وسلطوا عليهم العقم، ولن تشهد المدينة وليدا جديدا.

سأل ابن هشام:

ـ وماذا عن ادغام المجزوم..؟!

رد عبد الله بن الزبير:

ـ قلت (إلا قليلا) فالإدغام فى «ومن يشاق الله» من سورة الأنفال، وفى «ومن يرتد منكم عن دينه» من سورة المائدة.. لغة تميم.. وقد أصبحت مفهومة للكافة.

قال سعد بن العاص:

ـ وماذا عن الألفاظ التى استعملها العرب من مخالطتهم لسائر الألسنة فى أسفارهم وجرت فى محاوراتهم.

سأل زيد:

ـ مثل

رد ابن العاص:

ـ «بطائنها من استبرق» من سورة الرحمن

قال زيد:

ـ الكافة الآن، يعرفون أن بطائنها بالقبطية ظواهرها، واستبرق بلغة العجم

الديباج الغليظ. وقد جرت مجرى العربى الفصيح فى لغة العرب العاربة، التى جاء بها القرآن.

سأل سعيد بن العاص:

ــ لكن.. لماذا لم يستخدم القرآن مقابلها بالعربية..؟!

رد زيد:

ــ لو استخدم القرآن غيرها، لاستخدم أكثر من كلمة، ليدل على المعنى، حيث لاتوجد كلمة واحدة تدل عليه، وهكذا تكون الفصاحة، ولايكون القرآن قد أخل بالبلاغة..

قرأ عبد الرحمن بن هشام:

ــ «وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم»

قال زيد:

ــ «التابوه»

قال سعيد بن العاص:

ــ «التابوت»

قال ابن هشام:

ــ ألم يقل عثمان، عند الخلاف، ترجح لغة قريش..؟!

قال عبد الله بن الزبير:

ــ اذن فهى «التابوت».

انتبه زيد إلى أمه، رهن الإشارة. قال:

ــ أمازلت هنا ياأم..؟!

وقال ابن هشام:

ــ بالله عليك.. ألا ذهبتِ لتنامى، لنرتاح.

قالت النوار وهى تغادر:

ــ راحتى من راحتكم يابنى.

قال عبد الله بن الزبير:

ـ ماذا عن الآية الناقصة من سورة الأحزاب: «من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه» سمعنا أن النبى كان يقرأ بها.

قال زيد:

ـ وجدتها مع خزيمة بن ثات الأنصارى.

قال ابن هشام:

ـ ارسل فى طلبه للشهادة.

قال زيد:

ـ جميع من فى الدار نائمون الآن.

نهض ابن هشام، وقف بباب الحجرة، أطل على باحة البيت ونادى غلامه. طلب منه أن يسرع إلى بيته ويسرج فرسا ويحضر خزيمة.

حاول ابن الزبير أن يستمهله:

ـ فى هذه الساعة..؟!

وعقب زيد:

ـ انتصف الليل واشتد البرد.

لاح لابن الزبير، عدم تراجع عبد الرحمن بن هشام. فقال للغلام:

ـ اذن خذ معك شينا لتدفنته فى الطريق.

وضع زيد أمامهم، بعضا من سعف النخيل، وبعضا من الصحائف، وأخذوا يراجعون الآيات المكتوبة عليها. انتفض ابن هشام، كمن جفل به جواده فجأة، وقال لابن الزبير:

ـ أقلت للغلام لتدفنته.

دهش ابن الزبير، واسترجع فى رأسه ماقاله، ورد:

ـ نعم.. ماذا فى ذلك..؟!

نهض ابن هشام وقد امتقع وجهه:

ـ الغلام من بنى كنانة، والتدفنة فى لغتهم، تعنى القتل.

انزعجوا جميعا، وهبوا واقفين. أسرع ابن هشام ليلحق بالغلام. جلسوا

قلقين، فى انتظار عودته. وأحس ابن الزبير بألم شديد. ففضلا عن احتمال فقد الشاهد الوحيد لهذه الآية، فقد تزهق روحه دون ذنب جناه. لحظ زيد وجومه. حاول تهدئته، فقال:

ـ الأعمار بيد الله.

زفر سعيد بن العاص، فى حرقة. وقال:

ـ ولكل شيء سبب..!!

فجأة، وجدوا النوار بينهم، وقد أحضرت لهم شرابا. كظم زيد غضبه بصعوبة، وقال:

ـ أمازلت يقظة ياأم؟!

قالت النوار:

ـ ظننتني سمعت جلبة.. ولم يكذبني ظني.

كاد غضب زيد يفلت منه.. ضغط ابن الزبير بيده على ذراعه، حتى انصرفت النوار، وقال:

ـ لولا انشغالها، بك وبنا، ماتعافت، ولقضيت من زمن.

رغم ماهُم فيه، طغت روح الدعابة، على مافى نفس زيد من هم، وقال:

ـ اذن نطيل من مهمتنا، حتى نطيل من عمرها..!!

قال سعيد بن العاص:

ـ لاتسخر زيد.. مأن تنتهى من هذه.. حتى تجد غيرها فى انتظارك.

قال زيد:

ـ صدقت ابن العاص.. فالمهمات لاتنتهى.

سمعوا صوت خطوات، فى باحة الدار. نهضوا جميعا. تكاتفوا عند الباب، وقد زاغت نظراتهم. رأوا خزيمة، فهدأت دقات قلوبهم. وعندما اقترب من باب حجرتهم، احتضنه أقربهم اليه، وقال:

ـ حمداً لله

وردد ابن العاص وابن الزبير:

ـ حمداً لله.. حمداً لله..
عجب خزيمة من أمرهم، وقبل أن يحاول إدراك الأمر. اتجهت نظراتهم لابن هشام، متسائلة. قال:
ـ لحقت به قبل أن يخرج مع الغلام إلى الطريق.
رددوا جميعا:
ـ حمداً لله.. حمداً لله.
جلس خزيمة وهو يطالع وجوههم فى دهشة.

[١٣]

تساءلت عنقودة: هل آذن الوقت، بترك النوار، وقد عوفيت من مرضها، أم أتريث قليلا، حتى ينتهى زيد مما يفعله، وتهدأ خواطرها. ولو تريثت، هل يصبر سمرة، أم يطغى عليه عنفوان الشباب، لو لاحت له شابة جميلة فيتقدم لخطبتها. لا.. ليس الأمر بهذا اليسر، بيننا صداقة، وحب ملك علينا أنفاسنا. كل منا يدرك دخيلة الآخر. ويحاول جادا أن يتفهمه. لا.. وحتى لو راودته نفسه، فلن يستطيع وجدانه أن يتقبل أى فتاة أخرى بسهولة. فالحب لايحدث كل يوم. ولن يستطيع أى امرىء، أن يشير نحو فتاة، بعينها، ويقول: سأحب هذه الفتاة.
وحتى لو انتهى زيد من مهمته، فمن يلبى حاجة النوار، وأنا ذراعها، اذا تخاذلت ذراعاها، وأنا قدمها، إذا الشيخوخة أوهنت قدميها. أعلم أنها كريمة معى، وكثيرا ماأسرت لى:
لاتشغلى نفسك بنا، وثقى بأننا سوف نتدبر أمورنا. آه.. ماذا أقول ياأم.. وقد رعيتنى، بعد أن فقدت أبى فى فتح مكة، ولما يمضى وقت قليل، حتى لحقت به أمى.
ولشد مايحزن عنقودة، عدم استطاعتها، تلبية رغبة النوار التى تنطق بها عيناها، بل رغبة أهل البيت جميعا التى تحس بها من خلجات نفوسهم، أن

تقترن بخارجة. ولكن.. كيف تفعل، وقد شبت فى هذا البيت، كأنها شقيقة لخارجة وسعيد.

وحز فى نفسها، حين تناهى إلى سمعها مقولة النوار:

ــ لهفى عليك خارجة.. متى توفق إلى فتاة تحبها

كانت ساعتها، تعد بعض الورق، بجوار حجرتها، فى باحة الدار، حين رد عليها زيد:

ــ إلام تلمحين يأم.

ردت النوار:

ــ خارجة يرى عنقودة كل يوم، وعند تناول الطعام، ألا تستطيع أن تخطب له كما فعل ابن الخطاب، يوما، لابنه.

لم يأت رد زيد سريعا، فأدركت عنقودة أنه يفكر.

أحست بأسى، ودت معه، لو لم تشب فى هذا البيت. وجاءها رد زيد:

ــ لم يخطب عمر لابنه يأم، ولكن دله على موضع بيت فاستجاب له.

وجاء رد النوار:

ــ ولماذا لاتدل ابنك على موضع..؟!

لم يأت رد زيد. تساءلت عنقودة: وكيف يرد.. وهو لايدرى، متى يجود عليه الزمن، بفتاة، مثل التى جاد بها على عمر.

خرج عمر بن الخطاب فى إحدى الليالى، يتحسس حال الناس كعادته. سمع امرأة تقول لبنتها:

ــ اخلطى اللبن

قالت البنت:

ــ كيف أفعل وقد نهى الخليفة عمر عن ذلك.

قالت الأم:

ــ قد خلط الناس فاخلطى، مايدرى عمر بنا

قالت البنت:

ـ إذا كان عمر لايرى ، فالله يرى.
أكبرها عمر، وفى الصباح أخبر ابنه عاصما بما وقع، ودله على مكانها، وشجعه على الزواج منها.
تحسست عنقودة الورق بأصابعها، فوجدته مازال طريا. وجاءها قول زيد:
ـ أليس من الأولى أن نفكر فى عنقودة.
بعد قليل ردت النوار:
ـ ماكان علينا مطاوعتها بعد عودة سمرة
قال زيد:
ـ أخذنا بما نحن فيه أم ترانا، ادعينا ذلك لأنفسنا واستكنا لقيامها على راحتنا.. كم أشعر بالخجل عندما أتذكر أباها صلة رحمنا.
استبطنت عنقودة، ضيقا يتزايد مع كل كلمة وزيد يقول:
ـ لماذا.. لماذا لم أعجل بأمرها..؟!
لامت عنقودة نفسها، لأنها استمعت إلى حديثهما. وهونت الأمر، أن الحديث شدها رغما عنها. وطغى على ذلك، مااستشعرته من ألم، لأنهما يعانيان بسببها، ولم تعد تدرى ماذا تفعل..؟!

[١٤]

اليوم، موعده مع الصحاب، لترتيب السور فى المصحف. وبالأمس أبلغه سمرة، أنه جهز داراً، ويريدهم أن يروها. وفهم أن الأمر ليس مجرد رؤية، ولكنهم مدعوون للمساهمة فى ترتيب الدار. رجا أن ينتهى سريعا من الصحاب، ويفرغ لبيت عنقودة.
التأم شمل الصحاب. أعلمهم زيد بنية عثمان، حرق المصاحف الأخرى.. مثل مصحف أبى ومصحف على ومصحف ابن مسعود. قال عبد الله بن الزبير:
ـ كيف نحرق مصحفا أجاز النبى قراءته..؟!
قال سعيد بن العاص:

ـ كانت قراءتها إباحة ورخصة، ولم تكن فرضا.
قال عبد الرحمن بن هشام:
ـ لو كانت فرضا، لوجب العمل بكل حرف من تلك الحروف السبعة التى نزل بها القرآن، وماتُرك للناس الخيار، أن يقرأوا بهذا الحرف أو ذاك.
أضاف سعيد بن العاص:
ـ أما اختلاف القراءة، فى رفع حرف ونصبه وجره، وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر، مع اتفاق الصورة، فعن معنى قول النبى: أمرت أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف.
قال زيد:
ـ ولكنه قرآن.. فكيف نحرقه..؟!
سأل سعيد بن العاص:
ـ ولم عملنا اذن..؟
رد زيد:
ـ راجعنا مصحفا، واتفقنا عليه، مفهوم حرفه للكافة، فلماذا لانترك باقى المصاحف.. ربما أراد أحد يوما الرجوع إلى إحداها.
قال عبد الله بن الزبير:
ـ أنت أدرى الناس باختلاف الناس.. ولكن مايقلقك هو حرق قرآن.
قال سعيد بن العاص:
ـ عذرنا.. أن نجمع الناس على كلمة سواء.
سأل زيد:
ـ ولماذا لم يتم ذلك أيام النبى..؟!
قال عبد الله بن الزبير:
ـ عند أى اختلاف كان الناس يلجأون إليه.. فأين هو الآن..؟!
أضاف عبد الرحمن بن هشام:
ـ وأين أبو بكر.. وعمر..؟!

قال عبد الله بن الزبير:
ـ الاختلاف مطروح على زماننا.. ونحن أعلم بشئون دنيانا.
أطرق زيد هنيهة، وقد تذكر مقولة أبى القاسم، عندما نصح المسلمين بعدم تلقيح النخل، وفى موسم الحصاد، لم يأت بثمر، وسألوه: هل كان هذا وحيا أم رأيا، فقال لهم: أنتم أعلم بشئون دنياكم. رفع زيد رأسه وقال:
ـ صدقت ياابن الزبير.. نحن أعلم بشئون دنيانا.
وتذكر زيد اختلاف أم خارجة مع سمرة، حيث كانت تريد، أن تضع فى بيت عنقودة، وسائد يقعدون عليها، بدلا من كراسٍ وأريكة، مصنوعة من جريد النخل، فاعترض سمرة، أن الوسائد، إذ كانت تليق بخيمة، أو بالدور القديمة، فهى لاتليق بالبيوت الجديدة، فى المدينة.
قال عبد الله بن الزبير:
ـ اذن.. لم يبق أمامنا سوى ترتيب السُور.
قال عبد الرحمن بن هشام:
ـ مصحف على يبدأ بـ إقرأ، تليها المدثر، فالمزمل، حسبما جاء القرآن.
قال عبد الله بن الزبير:
ـ ترتيب السور حسبما جاء القرآن.. ليس بواجب، فيما أرى.. فضلا أنه ظل يجىء لأكثر من واحد وعشرين عاما.. فهل تعى الذاكرة ترتيب المجىء..؟!
سأل سعيد بن العاص:
ـ وماذا عن مصحف ابن مسعود؟
رد عبد الرحمن بن هشام:
ـ يبدأ بـ البقرة، تليها النساء، فآل عمران، فالأعراف، فالأنعام، فالمائدة، فيونس
سأل سعيد بن العاص:
ـ وماذا عن مصحف أُبى..؟
رد عبد الرحمن بن هشام:

ـ يبدأ بـ الحمد، فالنساء، فآل عمران، فالأنعام، فالأعراف، فالمائدة، فيونس، فالأنفال، فبراءة، فهود.

سأل عبد الله بن الزبير:

ـ هل يمكن ترتيب السور حسبما كان يقرأ أبو القاسم..؟

رد زيد:

ـ لم يكن يقرأ بنفس الترتيب فى كل مرة، ولعل ذلك حدث لبيان جواز أى ترتيب.

سأل عبد الله بن الزبير:

ـ وماذا يرى عثمان..؟

رد زيد:

ـ الفاتحة، فالبقرة، فآل عمران، فالنساء، فالمائدة، فالأنعام، فالأعراف، فالأنفال، فالتوبة.

سأل عبد الرحمن بن هشام:

ـ هل رتبها حسب الطول.. السورة الطويلة أولا.. فالأقصر منها طولا.. وهكذا.

قال زيد:

ـ ولماذا بدأ بالفاتحة.. وهى قصيرة..؟!

قال عبد الرحمن بن هشام وقد تفكر قليلا:

ـ لعلها الإستثناء الوحيد.

تفكر زيد برهة، وقال:

ـ الفاتحة تنتهى بالدعاء «اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» هذا الدعاء، يجد الإجابة عليه فى أول سورة البقرة: «ألم. ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين». وبذلك تكون السور متصلة.

قال عبد الله بن الزبير:

— كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم، قيل لهم، ذلك الصراط الذى سألتهم الهداية إليه هو الكتاب.

قال سعيد بن العاص:

— نِعْم الترتيب اذن.

قال عبد الرحمن بن هشام:

— لكن هذا يختلف قليلا، عما كان يُقرأ به أيام أبى القاسم.

رد زيد:

— ماكان يُقرأ به أقرب إلى مصحف أُبى، عدا الأنفال وبراءة

سأل سعيد بن العاص:

— لماذا لانأخذ بما كان مرتبا.. ثم نكمل مانراه.

قال عبد الله بن الزبير:

— لقد رأيتم الحكمة فيما فعله عثمان.. وماأشبهها بالحكمة التى ارتآها صاحبكم عمر بن الخطاب من قبل. فمع أنه كان من الواجب أن يبدأ العام الهجرى بشهر ربيع الأول الذى تمت فيه الهجرة، الا أنه وجد من الأفضل أن يبدأ العام بعد أن يكون الناس قد عادوا من الحج، واستقروا فى ديارهم، فبدأ بشهر المحرم، بعد ربيع بشهرين.

سأل سعيد بن العاص:

— هل كان القرآن مرتبا كله أيام النبى..؟

قال عبد الله بن الزبير:

— سمعت عن أوس الثقفى، وكان ضمن الوفد الذين أسلموا من ثقيف، قال لهم النبى «طرأ على حزبى من القرآن فأردت ألا أخرج حتى أقضيه» فسألنا أصحاب النبى: كيف تحزبون القرآن، قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من ق حتى نختم. ويحتمل أن الذى كان مرتبا هو حزب المفصل خاصة، بخلاف ماعداه.

قال سعيد بن العاص:

– اذن فالخير.. ماارتآه عثمان..

تفكر زيد قليلا، وقال:

– على بركة الله..

أمنوا جميعا، على مقولة زيد، صافحهم مودعا، وجلس أمام باب حجرته، مطلا على باحة الدار الساجية. حفت به ريح رخاء، ترك جسده لها، وحدث نفسه:

– فرغنا اليوم من الجهاد الأصغر، يانفس.. استعدى للجهاد الأكبر. وفكر فيما سيعرض له فى الصباح، مع أم خارجة والنوار، وكيف سيستطيع إقناعهما بما يود سمرة. خشى أن تثور ثائرتهما، إذا مالت عنقودة، إلى مايراه سمرة بشأن مايضع فى بيته، لذلك، اعتزم أن يجلب معه، سعيدا، وقد رجح أن يميل لما يراه سمرة. فيشد من أزره.

[١٥]

واربت عنقودة الباب، وحين رأت سمرة، أفسحت له الطريق. لحظت تهلل وجهه، فأيقنت أنه أعد دارهما. قالت بدلال، حتى لاتفسد عليه بهجته:

– لى شرط

تأملها سمرة. رفع حاجبيه فى عجب، وقال:

– وهل سمعت ماأود قوله..؟!

خبطت بيمناها فى رفق، على صدرها، وقالت:

– وهل تخفى أحوالك على عنقودة..؟!

ابتسم سمرة، وأحس نحوها بعاطفة، ود معها، لو يأخذها فى حضنه، ويشبعها تقبيلا. ويبدو أنها أدركت مايدور فى خلده، احمرت وجنتاها وقالت:

– ألا تسمع شرطى.

أنصت سمرة، ونظر فى عينيها، فاستمرت:

– لاتمنعنى بعد الزواج، من حضور مجلس ابن عباس

سرح سمرة بناظريه بعيدا، وتهرب بالمضى للقاء زيد. لكنها اعترضت طريقه، وقالت:

ـ لن تكون أول من يوافق على شرط.

تذكر ماتلمح إليه، حين اشترطت عاتكة على عمر قبل الزواج منها، ألا يمنعها من الخروج للصلاة، وخاصة صلاة الجمعة، وألا يضربها، مهما حدث بينهما من خلاف.

عاد سمرة بناظريه اليها، وقال:

ـ عمر وافق على مضض

عاجلته عنقودة:

ـ وأنا أريدك، أن توافق بنفس راضية.

تفكر سمرة قليلا. وحين عثر على حجة أخرى قال:

ـ كيف أتركك تقفين فى الطريق، مدة طويلة، أمام دار ابن عباس، حتى يؤذن لك..؟!

ردت عنقودة:

ـ طب نفسا. لشدة إقبال الناس، خصص ابن عباس، يوما للفقه، ويوما للتأويل، ويوما للشعر، ويوما لأيام العرب. وهكذا يدخل الجميع معا، فإذا كان عددهم كبيرا، خرج إليهم وجالسهم فى مكان يتسع لهم.

لم يجد سمرة مايرد به، فقال ضاحكا:

ـ أوافق.. شريطة ألا تقولى مالا تفعلين.

ردت عنقودة، وقد علا وجهها غيم خفيف:

ـ رُزنت بطول العمر، فلا أقول فيك ماقالته عاتكة فى عبد الله بن أبى بكر. وعلى أية حال اطمئن، أنا لاأقرض الشعر.

قال سمرة:

ـ ولكنك تحبين مجالسه.

ـ وأنت.. ألا تفعل..؟!

ـ يالك من معاندة.

وهو يحاول أن يزيحها برفق من طريقه:

ـ بنا إلى زيد.

لم تتحرك من مكانها، وقالت:

ـ لاأنصحك أن تكلمه فى شأننا اليوم، هو يشعر بألم شديد، فقد بلغه تقول بعض الناس، أنه لم يفعل شيئا، سوى احضار المصحف من حفصة، ونقل صورة منه.

قال سمرة:

ـ هذه شهادة له.. لا عليه.. تشهد أنه كان من الدقة فى الجمع والسؤال والتقصى، حتى جاء المصحفان متطابقين.

قالت عنقودة:

ـ وهذا رأى كثير من الصحابة.

تردد سمرة فى المضى، وعلت وجهه جهامة، وقال نافد الصبر:

ـ لكن.. إلى متى نرجىء الأمر..؟

ردت عنقودة فى هدوء، دون أن تؤثر فيها لهجته المتبرمة:

ـ لا تتعجل.. فأبى زيد، نفسه ممرورة جدا.. ليس لهذا السبب وحده.

رقت ملامح سمرة، وإن لم تتخل عنه الجهامة، وتغيرت لهجته، وهو يقول:

ـ بسبب ابن مسعود.

هزت عنقودة رأسها بالإيجاب، فأدرك سمرة، أن عندها حقاً، وأن الوقت غير ملائم، للحديث فى إتمام الزواج، وقال فى غيظ:

ـ لم يكن ينقصنا إلا اعتراض ابن مسعود..؟!

• • •

كان زيد قد بلغه، ماردده عبد الله بن مسعود: «يامعشر المسلمين.. أُعزل عن نسخ المصاحف، ويتولاه رجل، والله، لقد أسلمت وأنه لفى صلب رجل كافر».

وتساءل: لماذا غضب ابن مسعود لعدم دعوته معنا، فى نسخ المصحف، وكيف كان يفعل عثمان، وهو مكلف بمهمة فى أرض العراق وقتها..؟!

فهل كنا نؤجل ماقمنا به، حتى يعود..؟!

أم تراه غضب، لأن عثمان أمر بحرق باقى المصاحف، ومن ضمنها مصحفه، وقد قرأ فيه ناس كثيرون.. ولكن أليس من المحتمل أن يكون فاته فى مصحفه بعض مااستقصيناه من آيات.. كانت عند آخرين من الصحابة.. أم تراه غضب لأن النبى رخص له ولقومه أن يقرأوا بلهجة هذيل التى كانوا عليها. ولكن رغم هذه الرخصة. فليس لابن مسعود أن يحمل باقى الناس. ومن سيأتى على مر الزمان أن يقرأوا على لهجتهم الخاصة.. وأن من الخير توحيد الناس على قراءة المصحف باللهجة المضرية التى كان عليها النبى.

أم تراه غضب لأن عثمان أمره بتسليم مصحفه، واعتبر ذلك حطاً من شأنه، وهو من أعلم الناس بحكم القرآن، ومتشابهه، وحلاله حرامه، وقصصه وأمثاله، وأسباب نزوله.

أم تراه عزّ عليه، أن يتلف ماكتبه فى مصحفه من شرح وتفسير. ولكن ماذا لو بعد العهد بالناس، وظنوا إحدى تفسيراته قرآنا..؟! ألم يكن يقرأ إحدى الآيات من سورة الإسراء «أو يكون لك بيت من زخرف» على نحو «أو يكون لك بيت من ذهب..» أم كبر عليه أن يسلم مصحفه، وهو سادس رجل آمن بالدين الجديد، وأول من جهر بالقرآن فى مكة، وأسمعه قريشا، وكان قريبا من أبى القاسم، فهو صاحب طهوره وسواكه، ويمشى أمامه، بقامته القصيرة ولحمه الخفيف، يستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام. وأنه كان يسمع حين لايسمع أحد، ويدخل بيته حين لايدخل أحد. بل لهذا القرب، كان يجب عليه ألا يغضب، وألا يذيع من فوق المنبر «كيف تأمروننى أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت القرآن من فم النبى بضعا وسبعين سورة، وأن زيداً بن ثابت ليأتى مع الغلمان له ذؤابتان، والله ماجاء من القرآن من شىء، الا وأنا أعلم فى أى شىء جاء، وماأحد أعلم بالقرآن منى، وماأنا بخيركم، ولو أعلم مكانا تبلغه الإبل أعلم بالقرآن منى لأتيته».

حقا أتيت النبى وأنا صبى، ولكنى آخر من قرأ القرآن عليه، وكان ذلك

فى عام وفاته. وكانت قراءتى هى الأكثر وتشمل السور المكية والمدنية. وأنت ابن مسعود رغم ماتحفظه من السور المكية والمدنية، لم تقرأ عليه سوى السور المكية وأبى عرض مايحفظه من السور المدنية. هل بالغ ابن مسعود فى غضبه، لأن عثمان عزله عن بيت المال فى الكوفة.. ترى.. لماذا عزله عثمان.. هل هى موجدة فى نفس عثمان.. بسبب ماحدث منه فى إحدى الغزوات، حين وقع أبو جهل تحت سيفه، وتشفع فيه أكثر من صحابى، ورفض ابن مسعود وقتله. هل نفس عثمان السمحة، لم تستطع من يومها، أن تتقبل الأمر..؟! أم غضب عليه عثمان حين بلغه أنه خطب بالكوفة: (أما بعد، فإن الله قال «ومن يَغْلُلْ يأت بما غلّ يوم القيامة» وانى غالّ مصحفى فمن استطاع منكم أن يغل مصحفه فليفعل).

رجح زيد، أن عثمان لم يشأ أن يؤجل مهمتهم، حتى يعود ابن مسعود وأنه نزل عند رأى الناس، حين سألهم:

ــ من أكتب الناس..؟

قالوا:

ــ زيد بن ثابت

وسألهم:

ــ أى الناس أعرب..؟

قالوا:

ــ سعيد بن العاص

عندئذ أمر عثمان:

ــ فليُمل سعيد وليكتب زيد.

وهاهو زيد قد كتب المصحف، وهاهو عثمان يوصى بحرقه..!!

لكنه، لم يشأ أن يأمر بذلك الآن، حتى لايجرح شعور حفصة، التى حفظته عندها، كما فعل أبو بكر، عندما جمعوا المصحف أول مرة، وتركه عندها أبوها عمر من بعده، ولم يشأ عثمان أن يخالفهما، مخافة أن تظن أن قيمتها

نقصت عنده.. وهى التى سبق أن قدرها زوجها أبو القاسم، وحفظ عندها بعض الآيات مكتوبة، عندما لمس إجادتها للقراءة والكتابة. وأوصى عثمان أن يتم الحرق بعد وفاتها.

وهون الأمر على زيد، أن عثمان أمر بكتابة ست نسخ من المصحف ليحتفظ بواحدة منها، وتبقى نسخة فى المدينة، وترسل باقى النسخ إلى مكة والشام والبصرة والكوفة.

ولكن السؤال ألح عليه.. لماذا أوصى بحرق النسخة التى سينقلون منها..؟! جاءته حجة عثمان، أنه يخشى أن تقع فى يد أحد فيمحو أو يثبت فيها، ويقول للناس هاهو الأصل فاحتكموا إليه، ويكون صالحا للاحتكام.

وتساءل زيد ومازالت عاطفته تغلبه تجاه النسخة التى تعبوا فيها، ومايتنظرها من مصير، ترى هل أصاب عثمان..؟! وهل ترانى. أفعل مثل ابن مسعود وأتشبث بنسختى. فكر قليلا، ورد على تساؤله: إذا اختفت النسخة الأصلية، وانتشرت النسخ الأخرى فى البلاد المختلفة، وحفظ الناس الآيات، فلن يستطيع أحد أن يزعم أن النسخة التى حرقت كان فيها كذا وكذا أو لم يكن فيها كذا وكذا.

[١٦]

اجتمعن عند عاتكة، بعد صلاة العصر. دار الحديث بينهن عن الأبناء والأحفاد. طلبت منهن أم خارجة، أن تتأهبن للذهاب، قبل أن تسبق الشمس إلى الرحيل.

تحسست كل منهن هديتها. ودفع الفضول بعضهن، إلى محاولة التعرف على هدايا الأخريات. لكن أولئك، تضاحكن، ولم تشأ أى منهن أن تكشف عما أحضرت.

سرن، فرحات، باشات.. تتقدمهن أم خارجة والنوار وعاتكة بنت زيد، وفى ركابهن فضة النوبية، وعنقودة جارية عائشة، وبعض جارات لهن.

لم تكد عنقودة، تفتح الباب، حتى فوجئت بمن تحتضنها، وبمن تقبلها،

تسبقهن ضحكاتهن، وأسئلتهن، عن أحوالها. وكبر الأمر، عند عنقودة، حين رأت معهن النوار، فقالت:

ـ لم المشقة ياجدة..؟!

قبلتها النوار فى جبينها، وأعطتها عباءة حريرية، بيضاء، مطرزة. نشع الدمع من عينى عنقودة. وتسابقن جميعا، هذه تعطيها قارورة من المسك، وهذه تعطيها زجاجة من العطر، وهذه تناولها عباءة زاهية الألوان. اقتربت منها عاتكة، وهمست فى أذنها:

ـ بَيضتِ وجه خالتك عاتكة..؟!

قالت عنقودة:

ـ اشترطت عليه.

احتضنتها عاتكة وقالت:

ـ أنا الآن خالتك حقا..!

وتعالت الصيحات الضاحكة:

ـ لا أسرار بيننا اليوم.. علام تتهامسان..؟!

ومع أن البشر والفرح عمهن، إلا أن أم خارجة، لحظت ظلا من كدر خفيف، يحف بوجه عنقودة، فشعرت بقلق، وأحست بها عاتكة فاقتربت منها، وهمست، محاذرة أن تسمعها إحداهن:

ـ مازالت غضة.. ولم تعتد حياتها الجديدة بعد.

استأذنت عنقودة جارية عائشة، ونهضت معها فضة النوبية، فتنبهت الأخريات. قمن، ليتحن وقتا لعنقودة، مع أم خارجة والنوار، لعل إحداهما تريد أن تسر إليها بشيء أو لعل عنقودة تريد أن تقول لهما شيئا، لاتحب أن تسمعنه.

سألت أم خارجة:

ـ كيف حالك بنيتى..؟

صمتت عنقودة. كان هاجس، لائما، يظهر أحيانا، على سطح النفس، أنها ماكان يحق لها أن تطاوعهم، وتتزوج فى هذا الوقت، خاصة وقد اشتد نقد

بعض الناس لعثمان، لأنه حرق المصاحف، وانشغال بال زيد وصحابه بالأمر، فضلا عن انشغالهم بنسخ المصاحف. وخرج على بن ابى طالب وخطب فى الناس: «أيها الناس، الله، الله، إياكم والغلو فى أمر عثمان وقولكم حراق المصاحف، فوالله ماحرقها إلا عن ملأ من أصحاب النبى. جمعنا وقال: ماتقولون فى هذه القراءة التى اختلف الناس فيها. يلقى الرجل فيقول قراءتى خير من قراءتك. وهذا يجر إلى الكفر. فقلنا، ماالرأى..؟ قال أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد، فإنكم إن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا. فقلنا نِعْمَ مارأيت».

وأخبرها سمرة، أن بال زيد سيهدأ، ليس لهذه الكلمات فقط، ولكن لأن القائل «على».

نظرت إليه عنقودة فى دهشة، فحكى لها، ماكان من أمره، عندما عاد مرة من مكة والتقى أم زفر، ماشطة خديجة زوجة أبى القاسم الأولى، على سور الكعبة، وظن أنه عثر على شاهد لأول آية نزلت فى القرآن «اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم».

ضحك منه زيد وأعلمه أنها مصابة بالصرع، ولما لحظ خجله، اتخذ سمتا جادا وقال:

— سل عن الشخص.. قبل أن تسمع كلامه.

هدأت نفس عنقودة قليلا.. وارتاحت أكثر، حين بلغها مايردده زيد لمنتقدى عثمان: حقا كتبنا المصحف على حرف واحد، إلا أنه مازال يتمتع بميزة، لايشاركه فيها كتاب آخر، أنه يُقرأ على عدة أوجه، لاتعارض بينها.

وعندما علمت عنقودة أن ابن مسعود سلم مصحفه لعثمان ليحرقه، تساءلت.. ترى هل يؤدى ذلك لتهدئة خواطر منتقدى عثمان.. أم يزيد النار اشتعالا..؟!..

ولايلبث الهاجس أن يعاودها.. وهاهو يلح عليها الآن.. لماذا لم يحضر زيد ليبارك زواجها.. هل هو غاضب لأنها تركت البيت وهو مشغول، والجميع

معه، وفى حاجة إلى مساعدتها فى أعمال البيت، وفى رعاية النوار وقد بلغت من الكبر عتيا.

رفعت عنقودة رأسها، وسألت بدورها:

ـ كيف حال أبى زيد.

ردت النوار:

ـ بخير.. واهتمى بنيتى بنفسك.

سألت أم خارجة:

ـ كيف تسير الأمور بينكما..

مُلمحة إلى سمرة. قالت عنقودة:

ـ اطمئنى من جهتى.. ولكن صعب على ترك النوار.

وطفرت دمعتان من عينيها.

قالت أم خارجة:

ـ كدنا ننسى هداياك

ناولتها ثوبا من قماش زاهى الألوان، وأمسكت بعقد من الكهرمان فى يد، وقرط من العقيق فى يد، وقالت:

ـ هذا من أخيك سعيد، وهذا من أخيك خارجة.

علا البشر وجه عنقودة، وفاضت نفسها، ولم تستطع الكلام.

وناولتها النوار، لفة، همت عنقودة بفتحها، لترى مافيها، فاعترضت النوار. تشممتها عنقودة، وقالت:

ـ أكيد طِيب.. ومسك وعيدان من صندل.. كان ينبغى أن أعرف مادامت اللفة من جدتى النوار.

سمعن طرقا على الباب. أسرعت دقات قلب عنقودة، ومن طريقة الطرق المتأنية، تألق وجهها بالفرح وتبادلت أم خارجة نظرة سريعة مع النوار، فانتقلت إليها عدوى، ماشعرت به النوار من راحة، لأن ابنها تمكن أخيرا، من نفض همه وحضر للتهنئة.

نهضت عنقودة لتفتح، بينما تعلقت أعين المرأتين بالباب.

المراجع

١ – رجال حول الرسول، خالد محمد خالد

٢ – أسد الغابة، المجلد السابع، عز الدين بن الاثير.

٣ – عظماء فى تاريخ الاسلام، حسنى النشار

٤ – من قضايا القرآن، الكتاب الثالث، القرآن – جمعه – ترتيبه، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربى، ١٩٧٢

٥ – فضائل القرآن، ابن كثير، تحقيق سعيد عبد المجيد محمود، دار الحديث، القاهرة، الأزهر، ١٩٨٩.

٦ – الإتقان فى علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطى، جزء ١٠٢، دار التراث، القاهرة.

٧ – المعجزة الكبرى، القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى.

٨ – تاريخ الخلفاء الراشدين والعصر الأموى، د. محمد محمد عبد القادر الخطيب، وزارة الأوقاف.

٩ – التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبى، مكتبة وهبة.

١٠ – مفهوم النص، د. نصر حامد أبو زيد، هيئة الكتاب، ١٩٩٠.

١١ – العواصم من القواصم، القاضى أبو بكر بن العربى، ط ١٩٧٩.

١٢ – تدوين القرآن الكريم، د. محمد قبيسى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨١.

١٣ – حصاد العقل، محمد سعيد العشماوى، ط ١، ١٩٧٣.

١٤ – النسخ فى الوحى محاولة للفهم، د. سيد محمود القمنى، مجلة «الكتابة الأخرى»، الكتاب الثانى، يناير ١٩٩٢.

صدر للمؤلف

....

قصص قصيرة

- سلامات - طبعتان -:
أدب الجماهير - نوفمبر ١٩٦٩ - إقليم شرق الدلتا الثقافى - يناير ١٩٩٩
* كراكيب. ٣ طبعات. أدب الجماهير. سبتمبر ١٩٧٠ وسبتمبر ١٩٨٣ وفبراير ١٩٨٧
* سجناء لكل العصور. طبعتان. أدب الجماهير. يونيو ١٩٧٧ وأكتوبر ١٩٨٧
* الزمن المستباح. ٣ طبعات. أدب الجماهير. مارس ١٩٧٨ وأغسطس ١٩٨٢ ومارس ١٩٨٦
* النيل ينبع من المقطم. مواهب. فبراير ١٩٨٥
* كحكة للصبى. دار النديم، يونيو ١٩٩٠

الرواية

* شارع الخلا. ٣ طبعات. أدب الجماهير. أكتوبر ١٩٦٨ وأكتوبر ١٩٧٩ وأكتوبر ١٩٩٥
- نافذة على بحر طناح - ٣ طبعات - أدب الجماهير فبراير ١٩٧٦- الثقافة الجديدة ١٩٧٩ فرع الثقافة بالدقهلية مارس ١٩٩٩.
* المحاصرون. طبعتان. أدب الجماهير. أغسطس ١٩٧٢ و ١٩٩٧
* رجال وجبال ورصاص. طبعتان. أدب الجماهير. يونيو ١٩٧٢ و١٩٦٧
* الأسرى يقيمون المتاريس. ٥ طبعات. أدب الجماهير. فبراير ١٩٧٦ ومايو ١٩٧٩ ويونيو ١٩٨٥ وسبتمبر ١٩٨٧ وديسمبر ١٩٩٥
* العمرة - طبعتان - أدب الجماهير أكتوبر ١٩٧٧ وديسمبر ١٩٩٦.
* القرفصاء. طبعتان. أدب الجماهير. مارس ١٩٧٨ وفبراير ١٩٩٢
* متهمون تحت الطلب. ٣ طبعات. أدب الجماهير. مايو ١٩٨١ ويناير ١٩٨٥. وزارة الثقافة بسوريا ١٩٨٢
- عنقودة وسمرة - طبعتان - إقليم شرق الدلتا الثقافى - ديسمبر ١٩٩٦. أدب الجماهير أكتوبر. ١٩٩٩

المسرح

* الناس اللى مامعاهاش. مسرحيتان من فصل واحد. طبعتان. أدب الجماهير. ابريل ١٩٧٢ ومايو ١٩٨٤
* حاملات البلاليص. مسرحية فى ٣ فصول. أدب الجماهير يونيو ١٩٨٦
* عفوا رئيس الديوان. ٥ مسرحيات من فصل واحد. أدب الجماهير. مارس ١٩٨٧

---

* **أوراق أدبية – طبعتان –**

أدب الجماهير – ديسمبر ١٩٨٠– فرع الدقهلية الثقافى ديسمبر ١٩٩٨.

* أوراق نقدية . اقليم شرق الدلتا الثقافى. ديسمبر ١٩٩٨

أدب الطلائع

* **حلوان شامة. قصص طويلة. ٢ طبعات. أدب الجماهير. فبراير ١٩٨٢ وأكتوبر ١٩٩١. ورؤيا بالإسكندرية مع دار آزال ببيروت تحت اسم (حكاية الأمير سيف والأميرة شامة). فبراير ١٩٩٠**
* **أمن الذئاب. قصة طويلة. رؤيا. نوفمبر ١٩٨٨**
* **تعظيم سلام. قصص. طبعتان. أدب الجماهير. يونيو ١٩٨٩. واقليم شرق الدلتا الثقافى. مارس ١٩٩٥**
* **الأسد ينظر فى المرآة. قصص. الحقيقة. فبراير ١٩٩٠**
* **شجرة الدر تتلقى الأمانة. رواية. طبعتان. أدب الجماهير. مايو ١٩٩٠ وهيئة الكتاب ١٩٩٥**
* **بنات رشيد. مسرحية. هيئة الكتاب. نوفمبر ١٩٩٠**
* **تمرد رئيسة البنائين. قصص. طبعتان. أدب الجماهير. أغسطس ١٩٩١. ويافا للدراسات والأبحاث. ١٩٩٢**
* **براءة مارية القبطية. قصة طويلة. أدب الجماهير. سبتمبر ١٩٩٢**
* **مجلس الملكات. قصص. قطر الندى. أغسطس ١٩٩٦**
* زفات تحت الماء – قصص – طبعتان – كتاب الهلال – أبريل ١٩٩٩ وتحت اسم (طيور البجع تضحك) – إقليم شرق الدلتا الثقافي – مايو ١٩٩٨.

صدر حديثا :

• ليلة ٣٠ فبراير – قصائد منسوخة	شعر	أشرف يوسف
• المشى بمحاذاة رجل يشبهنى	شعر	هشام الصباحى
• غائب مؤرق بالحضور	شعر	محمد خيرى الإمام
• رجلى ف وضع الشهوة	شعر	أحمد عجاج
• لم أيها القمر	شعر	طارق الطبيلى
• سكتم بكتم	شعر	هشام علوان
• واحة الخصيان	رواية	هشام علوان
• العمرة «الطبعة الثانية»	رواية	فؤاد حجازى
• رجال وجبال ورصاص «الطبعة الثانية»	رواية	فؤاد حجازى
• المحاصرون «الطبعة الثانية»	رواية	فؤاد حجازى
• عدة أسباب للقسوة	قصص	عبد الحميد بسيونى
• الانسحاب للأمام	قصص	محمد عبد الواحد
• الضحية	قصص	محمد خيرت حماد
• الوجوه الحبيبة لاتموت	قصص	عادل الكاشف

رقم الإيداع
٩٩/١٤٩٦٦
الترقيم الدولي .I.S.B.N
977-324-027-4

دار الإسلام
للطباعة والنشر
٠٥٠/٣٥٠٤٥٣